وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:
رقم التسجيل: م أ ع /2014/046: N°

صورة المرأة في رواية دعاء الكروان لطه حسين

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر

الميدان: لغة وأدب عربي فرع: أدب عربي تخصص: أدب عربي حديث

إعداد الطالبة:
- مليكة مواسي

إشراف الدكتور:
- أحمد لعويجي

تاريخ المناقشة: 2016/05/26

لجنة المناقشة:

- د/ لخضر ديلمي ..... رئيسا
- د/ أحمد لعويجي ..... مشرفا
- د/ العربي عبد القادر ..... ممتحنا

السنة الجامعية: 1437/1436هـ -2016/2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

﴿ الحَمْدُ للهِ الذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾. الأعراف [43]

مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ لَمْ يَشْكُر النَّاسَ لَمْ يَشْكُر اللهَ]

أتقدم بأسمى معاني الشكر والعرفان للأستاذ الفاضل:

لعـويجـــي أحمـــد

الذي أشرف على هذا العمل دون أن يبخل علي بنصائحه وتوجيهاته السديدة فجزاه الله خيرا وجعل إحسانه في ميزان حسناته.

كما لا يفوتني أن أتقدم في هذا المقام بالشكر لـ:

جميع الأساتـذة الأفاضـل

الذين رافقونا في درب العلم دون ملل أو كلل إقرارا لهم بالفضل والجميل.

وأتقدم بجزيل الاحترام المكلل بالتقدير إلى:

أعضـاء اللجنة المناقشـة

الذين أضع بين أيديهم هذا البحث ليمدوني بآرائهم وملاحظاتهم القيمة.

ولا أنسى أن أشكر كل من ساعدني في انجاز هذا العمل وأمد لي يد العون سواء من قريب أو من بعيد ولو بكلمة طيبة.

مقدمة

مقدمـــــــة:

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه والصَّلاة والسَّلام على خير الـــورى وعلـــى آلـــه وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

أما بعد:

تعد الرواية فناً وافدا على ساحة الأدب العربي، وقد تابَعَتْ سَـــيرَها وتـــدرُّجها فـــي مدارج الفن على أيدي كُتاب تعمقوا في دراسة قوانينها أو تخصصوا في مذاهبها وراحوا يتحفون العالم العربي بثمار أقلامهم. والرواية العربية تتعلق في نشأتها بمعالجة القضـــايا الاجتماعية، ولعل من أهم القضايا الحساسة التي تناولَتها بالمعالجة والتصوير هي قضـــية المرأة، ونظرا للأهمية البالغة التي تحتلها المرأة في المجتمع نجد أن الكثير مـــن الأدبـــاء على اختلاف توجهاتهم يتفرغون لهذا النوع مـــن الأدب، ويقصـــرون نشـــاطهم عليـــه ويعالجون هذه القضية بفن رفيع يحلق عندهم في دنيا العواطف، وينتقدون بعض صـــور العلاقات الاجتماعية التي يرونها غير سوية، فصورة المرأة يعكسها الرِّوائي في قالب فنِّي بديع ومعبر بمخيلته المُلهَمة، تكون فيه المرأة العنصر الملهِم، على نحو الأديب والمفكـــر المصري (طه حسين) الذي وضع نصب عينيه تصوير قلق الأفراد ونقله من الواقع إلـــى عالم الفن وبخاصة ما تعلق بالمرأة في روايته (دعاء الكروان)، والتي ارتأيت أن تكـــون أنموذجا عن الرواية العربية في هذه الدراسة التي تتناول أساسا صورة المرأة في الرواية العربية، وهي دراسة تستمد أهميتها من أهمية المرأة البالغة والمكانة التي تحتلها في الحياة الإنسانية نظرا لضرورة الدور الذي تؤديه في المجتمع، كما تكمن قيمة هذا الموضوع في أنه يتعلق بأبرز الأجناس الأدبية وأكثرها انتشارا، وإني أضع أمامي مهمة البحـــث عـــن صورة المرأة في هذا النوع من الأدب لجملة من الأسباب والدوافع لعلّ أبرزها:

- الرغبة في الكشف عن جزء هام جدا من المجتمع والممثل في (المرأة) مـــن جانـــب أدبي عن قناعة مُؤداها أن الفن وثيق الصلة بطبيعة الإنسان والمجتمع.
- محاولة إبراز نماذج المرأة التي يفرزها المجتمع وتُصوِّرها الرواية العربية.
- أردت تسليط الضوء على أهم القضايا التي تشغل المرأة العربية أمام ضيق موروثها الثقافي ومتطلبات العصر.

ومن أجل الخروج بنتائج أصل من خلالها إلى الأهداف المتوخاة ارتأيت أن تكـــون هذه الدراسة مستقاة من عمق المجتمع، قريبة من الإشكالية التي تناولتها الرواية العربيـــة بكثرة ويطرحها الفكر العربي ــ فيما يخص قضايا المرأة ــ بين أيدي الآراء المتناقضـــة فمن قائل: إن على المرأة الانعزال والتستُّر والامتثال للتقاليد الموروثة، وأن تقيس حاجاتها وخياراتها على نماذجها وإن كانت لا تخدِمها، إلى قائل بتحرر المرأة وتجاوزها للقصـــور الذي يخيِّم على صورتها وضرورة امتلاكها للعلم والمعرفـــة والوثـــوق بقـــدرتها علـــى المشاركة في بناء المجتمع، ويتهم كل طرف الآخر بتُهم متعددة. وبـــين هـــذه الجـــدليات المتناقضة بين القيم المتوارثة وبين التجديد، و بين الماضي والحاضر، وبـــين المحافظـــة والتحرر، جاء اختياري لرواية (دعاء الكروان) التي وجدتها تجسد مختلـــف هـــذه القـــيم النقيضة، وتمثل رأيا وسطا يترك فيه (طه حسين) كلمة الفصل في هذا الجدل للمتلقي، من خلال التقاطه لصورة المرأة من زوايا متعددة بما أمكنه تسجيله من الواقع فـــي تجربتـــه الروائية هذه، وهو ما يبعث التساؤلات الآتية:

- فيم تمثلت صورة المرأة وكيف تجلت في رواية (دعاء الكروان) باعتبارهـــا روايـــة عربية تعكس واقع المرأة ومسائلها ؟
- وإلى أي مدى وفق (طه حسين) في استظهار صورة عاكسة لواقع المرأة في روايته؟

كما أن طبيعة موضوع الدراسة اقتضت تضافر مجموعة من المناهج، فكانت تتراوح بين المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي والمنهج النفسي، وحسبي أنه تضافُرٌ يخدم غايتي في فهم العمل الأدبي وإجلاء أثره، على أمل رصد تجليات المرأة وسبر أغوار نفســـيتها إزاء وضعها الاجتماعي والثقافي الذي وضعها فيه الكاتب، وإضفاء صورتها كما وردت في الرواية.

ولعل أهم المراجع التي نهَلْت منها مادة هذا البحث هي: مدخل إلى تـــاريخ الروايـــة المصرية لـــ(طه وادي)، المرأة العربية وقضايا التغيير لـــ(خليل أحمد خليـــل)، رمزيـــة المرأة في الرواية العربية، والأدب من الداخل لـــ(جورج طرابيشي).

وقد قامت هذه الدراسة على خطة بحث اشتملت على مقدمة عرضت فيهـــا دوافـــع وأهداف الدراسة، وطرحت من خلالها إشكالية الموضوع، وللإجابة عليها قسمت بحثـــي إلى فصلين حيث جاء الفصل الأول بعنوان: المرأة في المجتمع العربي ــ على أسلس أنه لا فاصل بين صورة المرأة وتاريخها الاجتماعي ــ في خمسة مباحث تناولت في الأول:

التعريف بأهم المفاهيم التي تقوم عليها الدراسة (الصورة الفنية، المرأة وفن الرواية). وفي محاولة للاطلاع على واقع المرأة في المجتمع العربي تتبعت أوضاعها عبـر محطـات مختلفة فجاء المبحث الثاني بعنوان: أوضاع المرأة قبل مجيء الإسلام، كما تطرقت فـي المبحث الثالث إلى أوضاعها في صدر الإسلام ، وحرصت في هذين المبحثين على رصد صورتها والكشف عن مواطن الرفعة والانحطاط والقوة والضعف والقبـول والـرفض، والحضور والغياب للمرأة، أما المبحث الرابع المعنون بـ: صورة المرأة فـي المجتمـع العربي الحديث، فقد ضم أبرز وأهم الآراء التي طرحها المفكرون المحافظون والمجددون على السَّواء فيما يخصّ أهم القضايا المتعلقة بالمرأة ونظرتهم إليها، مع الاستشـهاد مـن الحين للآخر بآراء وسطية كان قد أسهم بها الأدباء في أعمالهم الروائية بهدف الفصل في الجدل القائم حول إشكالية موضوع المرأة، وعَمدنا إلى تخصيص المبحث الخـامس إلـى إبراز أثر الرواية في تحسين صورة المرأة في المجتمع العربي ووسيلة الأدباء في ذلـك. أما الفصل الثاني فقد جاء في شكل دراسة تطبيقية تحت عنوان: تجليات صورة المرأة في رواية (دعاء الكروان) وتناولت من خلال مباحثه الملامح العامة للمرأة كما أوردها (طـه حسين) كأنموذج عن صورة المرأة في الرواية العربية، وقد تم تذييل هذا الفصل بالحديث عن بعض الجوانب الفنية في الرواية، وأنهيت هذا البحث بخاتمة تضمنت أهـم النتـائج والملاحظات التي أسفرت عنها الدراسة، وأتبعتها بملحق تضمَّن ملخصاً عن الرواية وأهم المحطات التي مرَّ بها الكاتب (طه حسين) في حياته، وأبرز إبداعاته الفكرية والأدبية.

إلا أن هذه الدراسة لم تخل من الصعوبات فصورة المرأة موضوع حسـاس للغايـة لتعلقه بالأخلاق والدين، كما أنه لا يوجد بحث عن المرأة في معزل عن الرجل، وهو مـا يجعل الموضوع شائكا يتطلب تشعبا لا يتَّسع له ضيق المقام. إلا أن هذه الصـعوبات لـم تثنينا عن المضي في الموضوع بفضل الأستاذ المشرف " ***أحمد لعويجي*** " الذي أعـانني كثيرا على تذليلها فله كل الشكر والامتنان على نصائحه السَّديدة التي قادتني إلى إتمام هذا البحث المتواضع على أمل أن يكون نقطة انطلاق وفتح معرفي جديد لدراسات لاحقة.

الفصل الأول

المرأة في المجتمع العربي

للمرأة دور كبير في المجتمع، حيث إنها تسهم في عملية التقدم والتحرر، فاهتم بها الشعراء في أشعارهم والروائيون في رواياتهم، وعبَّر عدد من الروائيين عـن المـرأة وأبرزوا صورتها في رواياتهم، حيث إن حركة المرأة ترتبط بحركة المجتمع من جهة وهي من جهة أخرى غالبا ما تمثل دلالة ورمزا قويا موحيا عن الوطن والتضحية.

بالإضافة إلى أن صورة المرأة في الرواية تتعدى وجودها الفردي لتعبر عن حقائق أبعد من هذا الوجود، كأن تكون رمزا للنوع الأنثوي، أو لشريحة اجتماعيـة خاصـة والصورة الفنية للمرأة في الرواية يصنعها الروائي وفق ما هي عليه في الواقع، فيسعى إلى إظهار المرأة كإنسان حر يسهم في بناء المجتمع جنباً إلى جنب مع الرّجل وإبـراز مدى فاعليتها في الحياة. كما أن قضايا المرأة لا تستمد من عمل روائي واحد، ولا من أعمال متعددة، بل تتضافر الأعمال الروائية لمختلف الكُتَّاب لرسـم همـوم ومشـاكل ومطامح المرأة، وبالتالي تقديم صورة متكاملة لها من النواحي النفسـية والاجتماعيـة والجسدية...الخ في صراعها مع مَوْقِعها في مختلف البيئات التي كثيـراً مـا تُضـجِر الروائيين بهَرمِها وشيخوختها وثقافتها ولغتها ومفاهيمها، وهو ما كان يضطرُّهم إلـى طرح هذا الصِّراع في إبداعهم الأدبي حول موضوع المرأة وهي التي تمثِّل أُساً يتقشَّر عنه كل الكيان الاجتماعي في المجتمعات العربية، وكثيرا ما كان هذا الصراع يعكس بحرارة موروثهم الثقافي والغريزي.

فإن تاريخ المرأة العربية لا ينفصل عن تاريخها الاجتماعي. التاريخ المشترك بينها وبين شريكها الدائم (الرجل)، والإشكال المطروح في عصرنا يـدور حـول أشـكال ومضامين هذه الشراكة الضرورية، وما يعتورها من عقبات وحواجز، ولعل أبرز هذه العقبات إبقاء المرأة في حالة العلاقة الطبيعية دون السَّماح لها بالارتقاء مـع شـريكها الدائم إلى العلاقة الثقافية والاجتماعية، وكثيرا ما كان قبول المرأة لعلاقتها الطبيعية تلك يَحْتِمُها على مقاومة ما يتلازم معها من علاقات عبوديـة علـى الصـعيد التـاريخي الاجتماعي. فكيف إذن للمرأة أن تُعطى الحرية والعدالة إن كانت تجهل الطريق إليهما؟ ومن أين لها أن تُسهم في تنمية المجتمع إذا كانت تعاني من نظرتـه القاصـرة؟ وإذا كانت المرأة من أبرز ما اهتمت به الرواية العربية فكيف تناولت صورتها؟

أولا: التعريف بمفاهيم الدراسة

تشتمل هذه الدراسة على ثلاث مفاهيم رئيسة وهي:

1-1) مفهوم الصـــــورة

أ) الصورة في اللغة:

إن المتأمل لكتاب الله عز وجل يجد أن لفظة الصورة وردت باشـتقاقات مختلفـة يقول ابن كثير(ت774هـ) في (تفسير القرآن العظيم) بأن الله تعالى يخبر أنه « يعلـم غيب السماء والأرض ولا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسـن وقبـيح وشـقي وسعيد ».[1]

وقال مجاهد عن لفظ الصورة في قوله تعالى:﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.[2]« أي شبه أب أو أم أو خال أو عم »[3] وقال عكرمة « إن شاء في صورة قرد وإن شاء فـي صورة خنزير، ومعنى هذا القول أن الله عز وجل قادر على خلق النطفة علـى شـكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسـن مستقيم معتدل القام حسن المنظر والهيئة»[4] من بين معاني لفظة (الصورة) التي وردت في القرآن الكريم (الخلق، الهيئة والمنظر، الحالة والشبه والشـكل)، والتصـوير فـي القرآن الكريم ليس تصويراً شكلياً بل هو تصوير شامل « باللَّون وتصـوير بالحركـة وتصوير بالتخيل كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التّمثيل و كثيرا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صـورة من الصّور».[5]

أما في المعاجم فنجد أن لفظ الصورة مشتق من صَوَرَ، يُصـوِّرُ، تصـويراً، أي يجعل له صورَة ًوشكلاً كما ورد في لسان العرب لابن منظور « صور في أسماء الله

---

1 ــ أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، طبعة جديدة ومنقحة. بيروت: 2006، دار الفكر للطباعة والنشر، ج1، ص314. والآية رقم6 من سـورة آل عمران.

2ــ سورة الانفطار، الآية 8.

3ــ أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص 2000.

4 ــالمرجع نفسه، ص2000ــ2001.

5ــ صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، (دط). باتنة: 1988، دار الشهاب، ص33.

تعالى، المصوِّر وهو الذي صوَّر جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شـــيء منهـــا صُورة خالصة و هيئة مفردة يتميز بها على اختلافها و كثرتها.

وعند الجوهري: والصِّوَرُ بكسر الصاد لغة الصُوَرُ بفتح الواو جمع صُورَة وينشد هذا البيت:

أشْبَهن مِنْ بَقَرِ الخَلْصاءِ أعْيُنَها وَهُنَّ أحَسُّ مِنْ صِيرَانِهَا صُوَرُ.

وتصورت الشيء توهمته والتَّصاوِير التماثيل.

قال ابن الأثير:« الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته».[1]

من خلال ما سبق يمكن أن نستخلص بعض المعاني التي أخذتها لفظـــة الصـــورة والمتمثلة في:(الخلق ــ الشكل ــ التوهم ــ التماثيل ــ حقيقة الشيء وهيئته ــ صـــفة الشيء).

ب) مفهوم الصورة في الأدب:

لقد تطرق (أبو الهلال العسكري)(ت395هـــ) في كتابه (الصناعتين) إلى موضـــوع الصورة إذ يقول:« وإنما جعلنا المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة، ومعرضة خلقا لم يسمّ بليغا وإن كان مفهوم المعنـــى مكشـــوف المغزى».[2] نستشف من كلام (أبو الهلال) بأن بلوغ المعنى إلى قلب السامع إنما يكون في صورة مقبولة ومعرض حسن كشرطين أساسيين في البلاغة.

كما أفاض (عبد القاهر الجرجاني) (ت471هـــ) في حديثه عن الصورة في كتابـــه (أسرار البلاغة) وأشار إليها بقوله: « ومن الفضيلة الجامحة فيها أنها تبرز هذا البيان في صورة مستجدة، تزيد قدره نبلا و توجب له بعد الفضل فضلا».[3]

ذلك لأن الصورة في مدلولها تشمل العبارة أي الأسلوب والخيال الذي يكوّن العاطفة و يصورها.

ويرى (عبد العزيز عتيق) أن الصورة تنشأ عن الإدراك الحسي للأشياء فهي« الأثر النفسيّ الذي ينشأ مباشرة من انفعال حاسَّة أو عضو حاسٍ... والإدراك الحسي يعنـــي

1ــ ابن منظور، لسان العرب، (دط). بيروت: (دت)، دار لسان العرب، مادة صَوَرَ،ج4، ص 473.

2ــ أبو الهلال العسكري، الصناعتين ــالكتابة والشعرــ تحقيق: حمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، (دط). لبنان: 1986، منشورات المكتبة العصرية، ص.19

3ــ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، ط1. جدة: 1991، دار المدني، ص41 .

الفهم أو التعقل بواسطة الحواس وذلك كإدراك ألوان الأشـياء وأحجامهـا وأبعادهـا بواسطة البصر».[1] فالصّورة إحدى الظواهر الطبيعية فهي حضور صورة فـي ذهـن الإنسان للأشياء التي سبق وأن أدركها بحاسة من الحواس وانفعل بها.

والصورة « تجسيم لمنظر حسي أو مشهد خيالي يتخذ اللفظ أداة له، وهناك اللّـون والظل أو الإيحاء والإطار، وكلها عوامل لها قيمتها في تشكيل الصورة وتقويمها».[2]

كما يقول (جابر عصفور) في حديثه عن الصورة الفنية بأنها « لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته، إنها لا تغير إلا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه».[3]ذلك لأن الصورة في الأدب إنما هي إحدى طرق التعبير، ووجه من أوجه الدلالة تختص بما تحدثه فـي المعاني من تأثير وخصوصية، و أياً كانت هذه الخصوصية أو هذا التأثير، و من هنـا كانت الصورة دائما « غير واقعية و إن كانت منتزعة من الواقع لأن الصورة الفنيـة تركيبة عقلية تنتمي في وجودها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع، ومن ثم يبدو لنا في كثير من الأحيان أن الشاعر أو الفنان يعبث في صورة مـن الطبيعـة وبالأشياء الواقعة».[4] فعالم الأفكار كما نعلم هو بطبيعته غير واقعي و إن تراءت لنـا واقعيته من خلال ما يعانق من أشياء واقعة.

من خلال ما سبق يتبين أن الصُّورة في الأدب ترتبط كل الإرتباط بطرائق تبليـغ المعنى وعرضه عرضا حسنا، فيكون له تأثيره الخاص في المتلقي، ويتم ذلك بتحويـل المعنوي إلى المحسوس ليشكل بذلك الأديبُ نسيجاً من الصُّور والتي غالبا مـا تتـزاح فيها الألفاظ عن دلالاتها المعجمية لتخلق دلالات خطابية جد مؤثرة لها وقعُها الخـاص في النَّفس، لأن الأدب بطبيعته نسيج من الصُّور.

وبحديثي في دراستي هذه عن (صورة المرأة) في رواية (دعاء الكـروان) فـإنني أقصد بها ذلك البناء الذهني وما يربطه بالواقع الإنساني من ذاتية و رمزية و خيال، و لأن الأشياء توجد في الشعور عبر الصور« فالقصة و الرواية إنمـا تصـور الحيـاة

1ــ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، ط2. بيروت: 1972، دار النهضة العربية، ص.68

2ــ صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، ص.75

3ــ جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط2. لبنان: 1983، دارا لتنوير للطباعة والنشر، ص.323

4ــ حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في الشعر الجاهلي، ط2. الإسكندرية، 2007 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ص.08

تصويرا صادقا تمليه العاطفة و يحلله العلم، و لا سبيل إلى هذا التصوير ما لم تشترك فيه المرأة بوحيها وإلهامها ».[1]

ج) أهمية الصورة:

تعتبر الصورة وسيلة ثقافية لما تمتاز به من خصائص فلها لغة عالمية.كمـــا تحقـــق عمومية المعرفة، فبإمكان الإنسان مشاهدة صور غيـــره علـــى صـــفحات الصـــحف المعروضة على الشاشات فتشد انتباهه وتثير اهتمامه فيفهم منها ما يتلازم مع مســـتواه الفكري و الثقافي، و غالبا ما تزيل عوائق اللغة بين بني البشـــر بحيـــث يمكـــن فهـــم مضمون الصور دونما التمكن من لغة مُرسليها .

والصورة وسيلة اتصالية اعتمدها الإنسان البدائي كلغة تصويرية تمثلت فـــي تلـــك الرسوم والنقوش على جدران الكهوف و الصخور والتي بقيت إلى وقتنا الحالي وكثيرا ما أخذت دور التعريف أو التحذير أو التوجيه فقد كانت تعبر عن الحاجات البيولوجيـــة و الإنسانية لأجل التواصل ، مثل ما هو موجود على صخور(الطاسيلي) في الجنـــوب الجزائري، في الطبيعة التي تمكنت من كسر الحواجز الزمنية، ولولا هـــذه المخلفـــات التصويرية لما استطاع علماء العصر دراسة الحضارات القديمة والكشف عن نظمهـــا السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

و للصورة أهمية بالغة في النقد المعاصر« فهي وسيلته التي يستكشف بها القصيدة وموقف الشاعر من الواقع وهي إحدى معاييره الهامة في الحكم على أصالة التجربـــة وقدرة الشاعر على تشكيلها في نسق يحقق المتعة والخبرة لمن يتلقاه».[2]

وقد تتغلب الصورة أحيانا على اللغة فتكون أكثر تبليغا من التعبير اللفظي، فلو أنـــه صادفك في أول اليوم مشهد امرأة افترشت الرصيف، و حملت بيمينها وليدها العـــاري الباكي، ومدت يسراها المعوجّة المحمرة المتيبسة من أثر البرد القارص طلبا للحاجـــة فلا شك أن هذه الصورة قد طبعت أثرها في نفسك وكانت ادعى إلى شفقتك وإحســـانك من أن يعبر لك أحدهم عن ذلك لفظيا.

1ـــ طه وادي، مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية، ط2. القاهرة: 1997، دار النشر للجامعات، ص.39.

2ـــ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، ص7.

2ـ1) التعريف بالمرأة:

أ) لفظ المرأة في اللغة :

المرأة الأنثى من النوع الإنساني خلاف الرجل، ولفظها من الجذر"مرأ".

ورد في لسان العرب لابن منظور« مرأة المروءة: كمال الرجولة، مرؤ الرجل، يَمرُؤُ مُرُوءَة فهو مَرِيء على وزن فَعِيل، والمُرُوءَةُ الإنسانية.

المَرَاءُ: يقال من المُرُوءَة، مَرُؤ الرَّجل، يَمْرُؤُ مُرُوءَة، والمَرْءُ الإنسان، تقول هذا مَرْءٌ وقد ورد في حديث الحسن، أحسنوا ملأكم أيُّها المَرؤُون، قال ابن الأثير: هـو جمـع المَرْءِ وهو الرَّجل، ومنه قوله رؤية لطائفة رآهم، أين يريـد المَـرؤُون. وقـد أنّثـوا فقالوا:امْرَأةٌ، وخفَّفوا التّخفيف القياسي فقالوا: مَرَةٌ بترك الهمزة وفتح الرَّاء، وألحقـوا ألف الوصل، فقالوا امرأة فإذا عرفوا قالوا: المرأة ».[1]

ولا يوجد في اللغة العربية جمع لكلمة امرأة واستخدموا لفظاً آخر يدلّ على المرأة دون الرّجل وهو لفظ نساء، وجاء في حديث علي (رضي الله عنه) أنه عندما تـزوّج فاطمة « قال له يهودي، أراد أن يبتاع منه ثياباً، لقد تزوجت امرأة، يريد امرأة كاملة، كما يقال فلان رجل أي: كامل في الرجال وقالت امرأة من العرب، أنا مرؤٌ لا أخبـر السّر».[2] ذلك أن المروءة عند العرب هي:« العفة، و النّخوة، و الحلـم، و المعـروف والصدق...و قيل هي أن لا تفعل في السر أمراً وأنت تستحي أن تفعله جهـراً، وهـي حفظ اللسان، وتجنب المجون،والسَّمتُ الحسن وتعاطي الإنسان كلّ ما يُستحسن، وتجنّبه كل ما يُسترذَل وصيانة النفس عن الأدناس وما يشين عند الإنسـان والوقـوف عنـد محاسن الأخلاق، و جميل العادات ...وقيل أوَّلُ المُروءة طلاقة الوجه والثاني التَّـودُّد، والثالث قضاء الحوائج للمحتاجين، وقال عمر بن الخطاب رضـي الله عنـه: تعلمـوا العربية فإنها تزيد المُروءة ».[3]

من الملاحظ أن العرب قد جمعوا كل ما في الإنسانية من خصالٍ حميدة، من خـلال طيِّبة وضمُّوا بعضها إلى بعضٍ وجعلوها جميعا في لفظة(المروءة) ثم اشتقوا منها اسم

1ـ ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص 154.

2ـ المرجع نفسه، ص157.

3ـ عرفان محمد حمور، المرأة والجمال والحب في لغة العرب، ط1. بيروت:2006 ، دار الكتب العلمية، ص.21

المرأة فكأننا بهم يريدون أن تتوفر في هذا المخلوق كل تلك الخلال و الخصال جميعا،و هذا دليل على سموّ مكانة المرأة عند العرب و رقيها.

ب) المرأة في الاصطلاح:

في حديثنا عن المفهوم الاصطلاحي للمرأة وجدنا أنفسنا غارقين فـــي بحـــرٍ مـــن المفاهيم المتعددة إذ لا نكاد نتفق على مفهوم محدد بعينه، نظراً للتنـــاول الـــذاتي فـــي تعريفها من قبل المفكرين و الأدباء، فكل يعرفها من منظوره الخاص، لذلك ارتأينا أن نجمع هذه المتفرقات عما قيل في المرأة وهي كالآتي:

هناك من ربط مفهوم المرأة بالعظمة إذ يقول "توفيق الحكيم": « المـــرأة هـــي روح الإنسان التي تجعله يقول: سأكون عظيماً و لكن عطفها وحده هو الذي يجعلـــه فعـــلاً عظيما».[1]

ويذهب "جون جاك روسو" (jon jack Rosso) إلى القول:« الرجـــل مـــن صـــنع المرأة، فإذا أردتم رجالاً عظاما علِّموا المرأة ماهية العظمة».[2]

ويُجمع الكثيرون على أن المرأة عالم متميز من الجمال والأحاسيس التي خصّتها بها الطبيعة فهي « عالم الجمـــال ولأن الجمـــال مـــن المـــؤثرات التـــي يســـتجيب لهـــا الإنسان...فيشعر بالراحة وتنبسط أساريره، وترتوي نفسه من ينابيع ذلك الكائن الأكثر سحراً وجاذبية، ومن دون الكائنات الأخرى، وقد تكون المرأة مصـــدر قلـــق وشـــقق للإنسان وسبباً من أسباب المعاناة له فتنقبض أسارير، ويعتصم الألم فؤاده ».[3] وتضيف (أمينة سعيد) في السياق ذاته «المرأة مخلوق بسيط لا غموض في خلقه وبنظرة واحدة إلى وجهها يستطيع الرّجل الذّكي أن يتبيّن ما يعتمل في قلبها من أحاسيس».[4]

« إن عالم المرأة هو عالم الأنوثة الفياض، بما فيه من سحر وفتنة، وعطر وزينـــة ولين ونعومة، ودفء وبرودة، وحركة وثبات، فالمرأة هي المرأة في كل زمان ومكان وإن الجسد الأنثوي بخصائصه الطبيعية، وبما خصته به المرآة نفســـها مـــن اهتمـــام

1ـــ سيد صادق عبد الفتاح، موسوعة أقوال الفلاسفة و الحكماء في عالم النساء، (دط). القاهر: (دت)، مكتبة متبولي،ج1، ص.145

2ـــ المرجع نفسه، ص210 .

3ـــ رضا عواضة، أسرار المرأة في كلمات، ط1. القاهرة: 1999، دار الكتاب الحديث للطباعة و النشر و التوزيع، ص.10

4ـــ سيد صادق عبد الفتاح، موسوعة أقوال الفلاسفة و الحكماء في عالم النساء، ص151 .

وعناية فائقة يبرز هذا الجسد عنصرا أساسيا لعالم المرأة، فالأنوثة والجمال هما العنصران الأساسيان لهذا العالم»[1]

ويقول شكسبير: (checkspeer) « المرأة مثل الزهرة إذا اقتلعت من مكانها تتوقف عن الحياة».[2] كما يؤكد توفيق الحكيم في تعريفه للمرأة على العلاقة الضرورية بين المرأة والرجل وهو ما يوضحه في قوله:« المرأة مثل القمر، فهي لا تشع ضوءاً من نفسها، بل تعكس الضوء الآتي من شمس عقل الرجل، هي كالقمر كائن سلبي وسطح معتم في ذاته لا تستطيع إلا بما ينعكس على قلبها وعقلها من تفكير الرجل وإحساسه، فدنوّها منه في مجال العمل المنتج له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة إلى جانب المصباح، إنها تضاعف نوره وإشعاعه، وهي ليست كياناً مستقلا بذاته بمقدار ما هي من مكملات الرجل وملحقاته الطبيعية لا على أساس الاستعباد، ولكن على أساس الاندماج والتلاشي من كلا الجانبين في سبيل الأهداف الاجتماعية المشتركة التي يساهم كل منهما فيها بمقدار إمكانياته».[3] وعليه، فإن المرأة نصف لابد منه ليكمل الرجل في كل الأحوال وبدونها يبقى الرجل ناقصاً والعكس صحيح. وقيل أيضاً : « للمرأة خاطر في حياة الرجل وفي شعوره، فهي غايته وأنشودة فؤاده ومدار حياته ومحط رحاله في وطنه الصغير، وهي مجثم روحه ومعراجه إلى السماء، سماء الراحة والسعادة إضافة إلى أنها مركز النظام في البيت ومرهم الأوجاع، وهي أولاً وآخرا نصف الرجل الأبدي إنها المرأة في حياة الرجل ومبعث وحيه».[4]

ويقول هيردر (hirder): المرأة تاج الخليفة.

ويقول فولتير(Voltaire): خلقت المرأة لتحب الرجل وتخضع له.

ويقول نيتشه (Nicha): المرأة لغز مفتاحه كلمة واحدة هي الحب».[5]

ألاحظ من خلال هذه التعريفات المتباينة ذلك الارتباط الوثيق لمفهوم المرأة بالرجل فهي لا توجد في منأى عنه، حيث يرى البعض بأن المرأة نصف لابد منه ليكمل

1ــ حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في الشعر الجاهلي، ص5.

2ــ إيميل ناصيف، أروع ما قيل في المرأة،(دط). بيروت:(دت)، دار الجيل، ص116 .

3ــ سيد صادق عبد الفتاح، موسوعة أقوال الفلاسفة والحكماء في عالم النساء، ص 142 .

4ــ رضا عواضة، أسرار المرأة في كلمات، ص 47 .

5ــ ايميل ناصيف، أروع ما قيل في المرأة، ص93ــ 116ــ 136.

الرجل، وأنها سر سعادته ونجاحاته بأن جعلوها تاجاً على رأسه، وهناك من يرى بأنها تابعة له وخلقت فقط لتحبه وتخضع له.

ولطالما كانت المرأة مصدر إلهام الشعراء والأدباء « فالمرأة هي الوحي الذي يلقي في خلد الأدباء والشعراء صوراً منتزعة من رؤى الأحلام،يبعثها في أفئـدتهم نسـيما عليلا،وفكراً رائعا يتهادى على أسلات اللسان برداً وسلاماً ،يطمئن إليه القلب ويرتـاح الخاطر،فالمرأة خمرة الأدب ورحيقه يرشفه الأديب والشاعر نشوة غامرة...والمـرأة هي الواحة الخضراء في صحراء الحياة و المرأة قصيدة الدّهر وأغرودة الأبد».[1]

وإن تعددت الآراء حول المرأة و المواقف التي دلَّل عليها الفلاسـفة و الحكمـاء و الأدباء فكلها تدل على أهميتها في حياة الرجل و المجتمع ككل، فهي تمثل نصفه إن لم نقل كله فهي الزوجة والأم والأخت، يبقى أن أشير إلى أنني سأعرّف أكثـر بصـورة المرأة في المجتمع العربي من خلال ملامحها المتجلية في رواية (دعاء الكروان) لـــ (طه حسين).

1ــ محمد بدر معبدي، آداب النساء في الجاهلية والإسلام ــ القسم الأول ــ النثر ــ (دط). الجماميزية:(دت)، مكتبة الآداب، ص9،5 .

3ـ1) مفهوم الرواية:

أ) الرواية في اللغة:

الأصل في مادة روى في اللغة هو « جريان الماء أو وجوده بغزارة أو ظهـوره تحت أي شكلٍ من الأشكال أو نقله من حال إلى حال أخرى، من أجل ذلـك ألفينـاهم يطلقون على المزادة الرواية لأن الناس كانوا يرتوون من مائها ثم على البعير الرواية أيضا؛لأنه كان ينقل الماء فهو ذو علاقة بالماء، كما أطلقوا على الشخص الذي يسـقي الماء هو أيضا الرواية».[1]

ب) الرواية في الاصطلاح:

يعرف الدارسون الرواية باعتبارها جنس أدبي متعدد الأشكال ودائم التحول فـلا تضبطه قواعد ثابتة، ومنه كان هذا النوع من الأدب معرض للتحول والتبدل المسـتمر وهذا ما أشار إليه (روجر آلن) Roger Alain في تعريفه للرواية بأنها« ذلك النـوع من الأدب الذي يتناول أساسا عملية التغيير كمرآة عاكسة لهذه العملية أو كداعية لها».[2]

والرواية عاكسة لعملية التغيير لأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالواقع ،مثل مـا يـذهب إليه (ميخائيل باختين) mikail baktun الذي يرى بأن الرواية لا تخضع لأي قانون إذ يصفها بأنها« المرونة ذاتها فهي تقوم على البحث الدائم وعلى مراجعة أشكالها السابقة باستمرار، ولا بد لهذا النمط الأدبي من أن يكون كذلك، لأنه إنما يمد جذوره في تلـك الأرضية التي تتصل اتصالا مباشرا بمواقع ولادة الواقع. ولأن الواقع متغيـر، كانـت الرواية أكثر استدعاء للتجديد، يقول ادوارد سعيد: التجديد هو فـي أن يكـون العمـل مبتكرا وأصيلا، أي شكلا لا يكرر ما يردده معظـم النـاس امـا بحكـم الحاجـة أو الاضطرار»[3].ومنه فالرواية تتميز بسمة التجديد والتفرد وهو المعنى الضمني للفظـة (رواية) بالانجليزية Novel .

والرواية هي:« مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشـها وتصـرفها فـي الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض ويكون نصيبها متفاوتا مـن

1ـ ابن منظور، لسان العرب، (دط). مصر: 2003، دار الحديث، مادة روى، ج4، ص346.

2ـ روجر آلن ، الرواية العربية، ترجمة: حصة إبراهيم المنيف، (دط). 1997، المجلس الأعلى للثقافة، ص19.

3 ـ المرجع نفسه،ص19.

حيث التأثر والتأثير»[1] والرواية « قالب من قوالب التعبير، يعتمد فيه الكاتب على سرد أحداث معينة تجري بين شخصية وأخرى أو شخصيات متعددة، يستند في قصها وسردها على عنصر التشويق حتى يصل بالقارئ إلى نقطة معينة، تتأزم فيها الأحداث ويتطلع المرء معها إلى الحل، حتى يأتي إلى النهاية »[2]

يعرف الخطاب الروائي بشكل عام على أنه « بنية لغوية دالة أو تشكيل لغوي سردي دال يصوغ عالما موحدا خالصا، تتنوع وتتعدد وتختلف في داخله اللغات والأساليب والأحداث والأشخاص والعلاقات والأمكنة والأزمنة ووحدته الدالة بل هو يؤسسها»[3]

ج) علاقة الرواية بالواقع :

إن علاقة الرواية بالواقع هي علاقة تأثر وتأثير، أين يمثل الواقع مصدرا لها فهي غالبا ما تتخذ من التحولات الاجتماعية وغيرها موضوعا رئيسا لها، مما يكسبها خاصية التنوع وهو ما يعزز إمكانية عكس أوضاع الواقع السائدة وإعادة إنتاج معطياته من منظور ذاتي خاص بالمبدع الروائي إزاء هذه المعطيات إما بالقبول أو الرفض وبما مكنته ملكاته الذهنية في ذلك في محاولة منه لإصلاح الأوضاع السائدة حيث « استطاعت الرواية وقد امتلكت ذلك التنوع الغني من الإمكانات السردية أن تغطي مجالا واسعا من المواضيع الإصلاحية الصرفة حتى مواضيع التأمل الشخصي والخيال الجامح ...كما أدى الإدراك المتزايد للطبقات المختلفة للوعي بالكثير من الكتّاب إلى استكشاف الأساليب الفنية، التي تحاول أن تعكس الحالات الذهنية باعتبار تلك العملية شديدة التعقيد».[4]

وقد يكون فن الرِّواية رفضا للواقع، باختلاف الوقائع الروائية « وهو رفض يتحقق بإبداع عوالم متخيلة بديلة، أو بإعادة تشكيل معطيات العالم الخارجي تشكيلا قد يكشف

1 ــ محمد يوسف نجم، فن القصة، ط1.بيروت:1996، دار صادر،ص9.

2 ــ عزيزة مريدن، القصة والرواية، ط1. دمشق: 1980، دار الفكر، ص13 ــ 14 .

3 ــ محمود أمين العالم يمنى العيد، نبيل سليمان، الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجية، ط1. سوريا:1986، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص.11

4ــ روجر آلن، الرواية العربية، ص22 .

جوهر صراعاته، أو جوهر حركة قواه الاجتماعية المختلفة... وهو يعيد تشكيل هـذه المعطيات بمنطق الخطاب الروائي لا بمنطق الخطاب الخارجي».[1]

وعليه فإن الرواية وإن نسبت إلى كاتبها ومبدعها، فهي ليست خارج الحياة مهمـا كان تشكيلها الجمالي ذاتيا، إنما هو تشكيل إبداعي حي نابع من الحيـاة لتحقـق بـه استمرارها وهو إضافة خلاقة إلى الحياة، ليس بمجرد وصفها أو نقدها، بل لتغييرهـا أيضا وتجديدها. فالرواية مربوطة بالواقع بما تملك من وظيفة فاعلة ومؤثرة في هـذا الواقع سواء كان سلبيا أو ايجابيا.

1ـ محمود أمين العالم، يمنى العيد، نبيل سليمان، الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجية، ص15ـ 14.

ثانيا: المرأة قبل الإسلام

أ) المرأة الحاكمة:

يشهد التاريخ بأن المرأة العربية قبل الإسلام قد تبوأت مكانة مرموقة، ومنزلـــة لا تُدانى ولا أدل على ذلك أنها رقت حتى تسنمت عرش المملكة، فكثيرات هن اللـــواتي وصلن إلى الحكم والرئاسة فمنهن (زنوبيا) ملكة تدمر التي قال فيها المستشـــرق (واد نكوك)أنها « من أصل عربي من بني السميدع وقد خضعت لها القبائل وضـــرب بهـــا المثل في العزة والكبرياء».[1]

وأكد ذلك (مصطفى صادق الرافعي) بقوله فيها:«... ملكة عربيـــة لهـــا عظمتهـــا و قدرتها، لا تعوزها صلابة الرأي ولا مضاء العزيمة، ولا تنقصها قوة البأس، ولا متانة الشكيمة، بل قامت تثبت للتاريخ أن المرأة التي تهز بيمناها سرير الطفل تســـتطيع أن تهزّ بيسارها العروش... انتظمت السِّلاح وأخضعت كثيرا من الممالك واقتحمت كثيرا من البلاد والمعاقل».[2]

وكانت المرأة سياسية محنكة فنقرأ في القرآن الكريم سيرة (بلقيس) ملكة (سبأ) وما كان لها من التجربة وحنكة الرأي، قال تعالى:﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞﴾[3]

ولها منزلة ديمقراطية في قومها تستشيرهم وتأخذ رأيهم في كل أمر، قال تعـــالى:﴿ قَالَتْ يَـأَيُّهَا الْمَلَؤُا افْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۞ قَـالُوا نَحْـنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۞﴾.[4] إن المتأمل لهـــذه الآيات يزداد إكباراً وإجلالاً وتقديرا للمرأة حيث كانت تستشير قومها في الرَّأي ويرجع إليها القوم إذا ألمَّ بهم أمر. ذلك لحكمها العادل النزيه، فبلقيس « كانـــت مثـــال الحكـــم العادل النزيه، أحسنت في الإدارة، وأبدعت في التنظيم ووطدت دعائم أمرها، ووثقـــت

1ـــ محمد بدر معبدي، آداب النساء في الجاهلية والإسلام، ص3 .

2ـــ مصطفى صادق الرافعي، الإسلام انطلاق لا جمود، (دط). 1959، منشورات مكتبة الحياة، ص 160 .

3ـــ سورة النمل، الآية [22_23].

4 ـــ سورة النمل، الآية، [32_33].

عرى ملكها، وخَلَفَت وراءها الكثير من الرّجال في الميادين التي يزعمون أنها وقفت عليهم وملك لهم.» [1]

ب) المرأة المستقلة:

لعل أهم ما ميز موضع المرأة في الجماعة قبل الإسلام هو استقلالها الاقتصادي الذي كان يوفر لها أكبر قدر من الحرية، وأمنا (خديجة) (رضي اله عنها) خير مثال على ذلك فقد كانت امرأة ذات شرف ومال تستأجر الرِّجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجارة فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وخرج في مالها ذلك».[2]

كانت المرأة آنذاك شريفة تملك أمر نفسها« كانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: ــ يبان عم ــ إني رغبت فيك لقرابتك وبسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك... ثم عرضت عليه نفسها».[3]

وقد كان شرفاء العرب يتسابقون للزواج من شريفات النساء العربيات، بل وتعاقب الكثير منهم على الزواج من إحداهن، ومنهن « أم خارجة عمرة بنت سعد، كانت من شريفات النساء في الجاهلية، كانت إذا أصبحت عند زوجها، كان أمرها إليها فإن شاءت أقامت، وإن شاءت تركته. وكانت ذواقة، تطلق الرجل إذا جربته فلم يعجبها وتتزوج رجلا آخر».[4]

ج) كرامة الأمومة عند العرب:

وكان للمرأة في المجتمع العربي كأم منزلتها التي تجعل أبناءها يفتخرون بالانتساب إليها «كان عدد من قبائل العرب وبطونها، ينتسبون إلى أمهاتهم، وهو انتساب فيه تكريم وإعزاز للمرأة... ومثله انتساب بعض ملوك العرب إلى أمهاتهم أيضا..»[5]

1ــ مصطفى صادق الرافعي ، الإسلام انطلاق لا جمود ، ص160 .

2ــ أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعا فيري، السيرة النبوية لابن هشام ،(دط). لبنان: 2012، دار الكتاب الحديث، ص.93

3ــ المرجع نفسه، ص93 .

4ــ عرفان محمد حمور، المرأة والجمال والحب في لغة العرب، ص32 .

5 ــ المرجع نفسه، ص.29

ونجد عند (عبد العزيز سالم) مثالا جليا على ذلك « لم يجد بعض الملوك بأساً من الانتساب إلى أمهاتهم مثل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة(512ــ554)، وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف، لقبت به لجمالها، وعمرو بن المنذر المعروف بعمرو بـــن هند نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر، وهذا القتال الكلابي يفتخر بأمـــه الحـــرة فيقول: لقد ولدتني حرة ربعية من اللاء لم يحضرن في القيض حندنا

والشنفري الشاعر الصعلوك يعتز بأمه الحرة فيقول:

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصباً وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها»[1]

كما أدت المرأة دورا هاما في الحياة الاجتماعية، فلطالما كانت شـــريكة للرجـــل فليس لهما تاريخان منفصلان فكل منهما شرط مكمل للآخر فقد « كانت شريكة الرجل في حياته في السلم وفي الحرب، فقد كان الزوج كل شيء في حياة الزوجـــة فكانـــت ترعاه وتخاف عليه من القتل ...والمرأة في السلم تقضي وقتها في مساعدة زوجها في الزراعة إن كانت تعيش في مناطق زراعية أو الطهي وإعداد الطعام لزوجها، وحلـــب الأغنام، أما في الحرب فكانت تصحب زوجها في الغزو لتشجيعه على القتال واستثارة نخوته، أو تداوي الجرحى، أو تسقي المقاتلين».[2]

د) المرأة كجنس منبوذ:

وهناك أخبار تفيد بأن عددا كبيرا من عرب الجاهليـــة كـــانوا يكرهـــون البنـــات ويؤثرون عليهن البنين ذلك أن الصبيان يرجى منهم النفع أما الإناث فمجلبـــة للخـــزي والعار« وقد بالغ بعض الناس في بغضهم للبنات عند ولادتهم إلى حد الوأد*ـــــ ومـــن أمثلة هؤلاء ــ رجل يدعى حمزة الضبي وضعت له زوجته أنثى، فهجرها وأخذ يبيت عند جيرانه، فمر بخبائها يوما فسمعها تقول لابنتها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يبيت في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينـا
إنما نأخذ ما أعطينا و نحن كالأرض لزارعنـا
ننبت ما زرعوه فينا»[3]

1ــ عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1. الاسكندرية: 1997، مؤسسة شباب الجامعة، ص400 – 401 .

2ــ المرجع نفسه، ص101ــ 402 .

*هوأن يحفر الرجل حفرة،ثم يضع ابنته فيها، ويهيل عليها التراب، فيدفنها حية،وقد شاعت هذه العادة الذميمة في تيم وقيس و هذيل وكندة وبكر وقريش.

3ــ المرجع نفسه، ص396،397 .

فكان إذا بشر الرّجل بولادة أنثىً له حزُن حزناً شديداً لما لحقه من ذل، وقد صوَّر القرآن الكريم الحالة النفسية التي يكون عليها، في قوله تعـالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدًّا وَهُوَ كَظِيم ۞ يتوارى مِنَ القَومِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمسِكُهُ على هَونٍ أم يدسُّهُ فِي التُّرابِ ألا سَاءَ مَا يَحْكُمُون ۞ ﴾[1].

ويرجع سبب الوأد إما للفقر، أو الخوف من العار إذا كبرت البنت وتعرضت للسبي يقول أحد الآباء: « فأخذتها ودفنتها حية، وهي تقول: أتتركني هكذا؟ فلم أعرج عليهـا. ويقول آخر: وكيف لا تأخذني الغيرة وهي عورة: هديتها سـرقة، وسـلاحها البكـاء ومهنؤُها لغيري».[2] غير أن هذه العادة الذميمة لم تكن عامة عند العرب جميعا، فمـنهم من كانوا يتفاءلون بالبنت ويعطفون عليها « يذكر أن معن بن أوس الشاعر كان مئناثاً، وكان له ثلاث بنات يؤثرهن ويحسن صحبتهن،وكان يرى البنات أكثر وفاء على الآباء من الصبيان، فيقول:

رَأَيْتُ رِجَالاً يَكْرَهُونَ بَنَاتَهُم وَفِيهِنَّ لاَ تَكْذِبُ نِساءٌ صَوَالِغُ

و فيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملللن وَ نَوَاءِحُ».[3]

كما أنه لابد من الإشارة إلى أنه على الرغم مما لحق بالمرأة من ظلم في الجاهلية، إلا أنها استطاعت أن تخلف صورة مشرقة، من خلال الأدوار الهامة التي كانت تؤديها آنذاك بما تميزت به من حنكة مكنتها من التصدي لظروف بيئتها الوعرة ــ بما حفلت به من غزو وحروب، وتناحر بين القبائل ــ التي كثيرا ما عرضتها للسبي والخطـف والاستهلاك الجنسي وتمكنت من احتلال مكانة هائلة في قلوب الرجال الـذين تغنـوا بجمالها في أشعارهم.

1ــ سورة النحل، الآية [85 ــ 59].

2ــ خليل احمد خليل، المرأة العربية و قضايا التغيير، ط1. بيروت: 1972، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص.39

3ــ عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص29 .

ثالثا: أوضاع المرأة في صدر الإسلام

أ) المرأة والإسلام:

مع مجيء الإسلام الحنيف ظهر معه اتجاه مبدئي يرمي إلى تقنين أوضاع المـــرأة تقنينا دينيا بهدف الحد من المغالاة و التطرف فارتقى بالمرأة وبلغ بها أوج الكمال بأن أقر لها حقوقا وفرض عليها واجبات وخصها بنصوص صريحة وجعل لها دستورا لا تحيد عنه، قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَـيْهِنَّ دَرَجَـةً وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]

وقرر لها نصيبا مفروضا،قال تعالى:﴿ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالاقْرَبُونَ مِمَّـا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كُثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[2]

وعليها من الواجبات ما يضمن لها عفتها وفضيلتها، قال تعالى:﴿ وَقُـلْ لِلْمُومِنَـاتِ يَغْضُضْنَ مِنَ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَضْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَـا وَلْيَضْـرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[3]

كما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالمرأة خيرا في قوله:[وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَـذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَـةِ اللهِ وَاسْـتَحْلَلْتُمْ فُـرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ].[4]

كما ارتفع وعي المرأة مع الإسلام واقترن بفاعلية اجتماعية ثقافية دينية وسياســية حيث خلفت صورة مشرفة من خلال أدوارها المتعددة، فمثلا برزت عائشة أم المؤمنين في القراءة و الكتابة فكانت « أفصح أهل زمانها و أحفظهم للحديث..كما كانــت أفقــه الناس وأكثرهم خفضا للشعر ولأدب حتى قيل أنه لم يوجد احد أعلم منها فــي فقــه أو شعر».[5]

وسعت المرأة العربية لبث الدعوة الإسلامية فشاركت إلى جانب الرجال في شــتى أشكال القتال بما استطاعت أن تقدمه « أثبت البخاري تحت عنوان "باب غزو النســاء" وقتالهم مع الرجال.. عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم "أحد" انهزم الناس على

1ــ سورة البقرة، الآية [228].

2 ــ سورة النساء، الآية [7].

3ــ سورة النور، الآية [31].

4ــ محمد الغزالي، فقه السيرة، ط6. 1965، دار الكتاب الحديث، ص488 .

5ــ محمد بدر معبدي، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص.9

النَّبي قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر و أم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما (ظهرهما) ثم تفرغانه (الماء) في أفواه القوم ثم ترجعان تملآنهما، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم».[1] كما كانت المرأة تحرص على الجهاد في سبيل الله « قالت الخنساء تحرض أبناءها على القتال: فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعداءه مستنصرين... وحين بلغها استشهاد بنيها قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم... وقالت أسماء بنت بكر لابنها والله لضربة بالسيف في عز أحب إلي من ضربة سوط في ذل ».[2]

لقد أعاد الإسلام الاعتبار للمرأة بأن فك عنها أسر العبودية و نهى عن التعدي على حقها في الحياة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [3]

ب) المرأة في العهد الأموي:

غير أن وضع المرأة عرف تدهورا ولم يبق على حاله بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم، فالعهد الأموي عرف اتّساع طبقة الموالي* الذي تبعه تحول اجتماعي خطير نظرا لتعدد الذّهنيات المتعارضة مع نهج العرب الأحرار، مما عاد بالسلب على وضع المرأة العربية « لقد أعاد الرجال رفع سيوف وصاياهم فوق رؤوس النساء، معتبرين المرأة قاصرة وأنها متعة للرجل السيد... كما لعب المفهوم الإسلامي ﴿وَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاء﴾ دوره إلى أبعد حد ممكن فصار الرجل يتمتع شرعا بأربع نساء، ويتمتع بعدد لا محدود من السَّراري كما استعمل أسلوب الطلاق كوسيلة للاستزادة من النساء».[4] ومن هنا أخذ يتبلور أكثر فأكثر مسار انكماش المرأة العربية وعودتها إلى الخدمة المنزلية، وخضوعها لتقاليد قاسية.

ج) المرأة في العهد العباسي:

وجاء الانقلاب العباسي مبنيا على نتائج الانقلاب الأموي مسجِّلاً تحولاً خطيراً للمرأة العربية حيث أصبحت من جملة سلع التِّجارة و نظام الحريم مما حط من منزلتها

1ــ محمد الغزالي، فقه السيرة ، ص44ــ 45.

2ــ خليل أحمد خليل، المرأة وقضايا التغيير، ص54ــ 55.

3ــ سورة الإسراء، الآية [31].

* اسم الموالي يطلق على أولائك الذين اتصلوا صلة الولاء بسيد عربي، وهي صلة مشابهة لما عهدته المجتمعات العربية قبل الإسلام. وكانت معروفة في الجزيرة العربية.

4 ــ خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، ص63.

أمام ارتفاع موجات القهر والعِداء « قهر يجرف النساء كما القطيع، لقد صار الرِّجـال الواقفون ضد حقوق المرأة العربية وحريتها هم المستفيدون من وضعها العبودي فالبلاد امتلأت من سباياهم وجواريهم و يحتجزون النساء فـي الخـدور ويفرضـون علـيهم الحجاب والائتزار».[1] ومن ثمة تصاعدت الحملات الرامية إلى تدمير نـواة المجتمـع العربي من خلال إنتاج ثقافة مؤذية وقاتلة للمرأة. « إن وضعاً طبقيا عبودياً كهذا يتاجر فيه بكل شيء ويباح فيه كل شيء، لا يمكنه أن يكون لحياة المرأة المحاصرة بثقافـة رجعية وانحطاطية من مثيلاتها:

إياك يا بني ومشاورة النساء
فإن رأيهن إلى الأفن
وعزمهن إلى الوهن
واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك إياهن
ولا تطل الجلوس معهن فيهلكنك وتملهن[2]

لكن هذا الطرح الذي يحط من قيمة المرأة لا ينفي عنها تميزها إذ « كان هناك قسم آخر من النساء في الأندلس قد مزقن الحجاب عن الوجـه وكشـفن مواهـب المـرأة الإنسانية في الأدب والفكر والشعر والجرأة والعمل السياسي وتعلـم المهـن كالطـب وسواه».[3] وهذا يدل على قدرة النساء على خدمة المجتمع، والمساهمة في تطويره وقد أرجع ابن رشد شقاء الأمة العربية إلى استعباد المرأة وحرمانها من إنتاج الثروة المادية والعقلية بقوله: « إن حالتنا الاجتماعية تتطلب ألا نطيح بكل ما يعود علينا بمنافع المرأة فهي في الظاهر صالحة للحمل والحضانة فقط، وما ذلك إلا لان حالة العبوديـة التـي أنشأنا عليها نساءنا أتلفت مواهبها العظيمة و قضت على مواهبها العقلية... وقد كان ذلك سببا في شقاء المدن وهلاكها».[4]

د) المرأة في العهد العثماني:

ومع ارتفاع موجة العثمنة وانهيار الخلافة العربية عم الجهل والتخلف أين تزايد تهميش المرأة في مختلف الميادين « فحرمت البنات من القراءة والكتابة، وباتت المرأة

1ـ خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، ص.69

2ـ المرجع نفسه ، ص68ـ69.

3ـ المرجع نفسه ،ص 72 .

4ـ المرجع نفسه، ص .72

موضوع أقاويل وإشاعات ، حكمها حكم المملوك التابع فهي كالمملوكة للزوج ..ومما يؤسف له أنه يرفع في كتب التدريس العثمانية شعار"القبر ولا المدرسة"».[1]

غير أن هذا لم يمنع من بروز نساء ــ ولو على قلَّتِهن ــ آنذاك تميزن بالقوة والعزم وتَمَكَّنَّ من أن يقمن مقام الرجال يذكر (بروكلمان) في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية أنه « في عام 1857 ظهرت في قبيلة بني (الجزائر) بنية اسمها (لالاّ فاطمة) فاتبعتها القبائل المجاورة كلها اضطر الحاكم راندون (Randon) أن يخرج بنفسه لقتالها على رأس ثلاثين ألف رجل».[2]

ومع تطور الاقتصاد ونمو المجتمع العربي أخذت مسألة المرأة منحى ايجابيا فدمرت أبواب الخدور ونظام الحريم تدريجيا ،فخرجت المرأة العربية لتعلن حقها في الحياة والعلم والعمل وتكلل هذا المسار التقدمي بمساواة مدنية لاحقة بين الرجل والمرأة في الحقوق وكل الأحكام الأخرى.

1ــ خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، 73.

2ــ ع/ المرجع نفسه، ص74.

رابعا: صورة المرأة في المجتمع الحديث

أ) المرأة والتنشئة الأسرية:

إن الإشكالية التي تطرح نفسها فيما يخص قضية المرأة في المجتمع العربي هـــي إصرار الأسرة العربية على تفضيل الذكر على الأنثى علـــى الـــرغم مـــن العلاقـــة الضرورية التي تربطهما فلا يمكن للحياة الإنسانية أن تقـــوم إلا باجتماعهمـــا، وهـــذا الاجتماع يفترض العلاقة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياســـية بينهمـــا « أمـــا خفض الاجتماع إلى علاقة جنسية عادية فقد شكل أساسا لمشكلات كبرى على صـــعيد التخلف الاجتماعي أم على صعيد القهر العام للأمة العربية، إن المـــرأة تنســـب إلـــى الرجل: فهي جنسه الآخر، شقه المتمم، وهي استهلاكه الجنســـي، ومجمـــع علاقاتـــه وأساس إنتاجه. وهي أمٌّ في مقابل دوره كأب: إنها موطنه، موطن الرجل(الأب، الابن) العائد إلى المنزل، وهي موطن الأنثى في الواقع (الابنة، الأخت..الخ) »[1]

ويُرَدُّ سبب تفضيل الذكر على الأنثى إلى كيفية وطريقة الأسرة في تنشـــئة وتربيـــة الأبناء، حيث تُعامَل الفتاة معاملة خاصة تختلف عن معاملة الذَّكر مما يولد حالـــة مـــن الضعف في نفسيتها غالبا، وكثيرا ما يجعلها تسلك سلوكا ملتويا بخلاف الرجل الـــذي يتمتع بكثير من الاستقرار النفسي مقارنة بالمرأة التي تحس دائما بالضـــعف « فـــالأم تضم ابنتها وتعطف عليها أكثر من الفتى، وبالتالي تبعث فيها هذا الشعور منذ الصـــغر تقول "سيمون دي بو فوار": إن الفتى ينشأ ويترعرع تحت إشراف أمـــه لكنهـــا تُكِـــنُّ الاحترام لرجولته فتتركه طليقا بعض الشيء، فيم تسعى في ضم ابنتها إلـــى عالمهـــا النسوي... إن الطفل والبنت يتعرفان على نفسيهما في الصغر بصورة متشـــابهة ومـــا يبدوا لنا من اختلاف بين الذكر والأنثى هو في الحقيقة بفعل التوجه الممارس عليهمـــا من الخارج»[2] ، وهاهو قلم (مولود فرعون) يصور المرأة في هكذا وضع في روايتـــه (نجل الفقير) التي جاء فيها «... كان لها من سماحة الطبع ما يســـمح لهـــا أن تتلقـــى ضرباتي، وتقابل تهكمي منها وسخريتي بها بحِلم ينسرُّ تصوره لدى طفـــل فـــي مثـــل سنها... وكان من المؤثر سماعها تقول لأمها باكية: أخي أبقاه الله لي، هو الذي أكـــل

1 ــ خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، ص10.

2 ــ صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ط2، بسكرة: 2009 ، جامعة محمد خيضر بسكرة ص39.

حصتي من اللحم أخي أبقاه الله لي مزق منديلي ».[1] وهـذه صـورة لضـعف الفتـاة وعجزها عن مواجهة أخيها، فهي تستعين بأمها عليه في استرجاع حوائجها منه، ولأن الفتاة تنشأ وسط جو من التعظيم لنظيرها الذكر في الأسرة، فما عليها إلا أن تكون تابعة لكذا منظور، فتفضّل هي الأخرى الذكر على نفسها مهما كان عنوانـه فـي الأسـرة وتضطر إلى قبول كل تصرف يصدر عنه، فله كل الأمر وليس لها في أمره من شيء مما يضعها غالبا في وضع نفسي لا تحسد عليه.

ب) المرأة والتراث العربي:

ولإن تحررت المرأة العربية في المجتمع الحديث من أشكال السَّـبي والاسـترقاق القديمين إلا أنها ما زالت تعاني مأساة استملاك وسبي جديدين وذلك على صعيد القـيم والأفكار التي ظلت عالقة على تاريخها ــ من تـراث وأحاديـث والآداب الإسـلامية الأولى ــ والتي غالبا ما تأخذ منحى آخر لدى أصحاب النظرة العدائية لتحرر المـرأة والرافضين لمبدأ المساواة مع الرجل ــ في الأمور المشروعة طبعـا ــ وكثيـرا مـا سخَّروا تلك الرواسب لتبرير كل ما من شأنه أن يحافظ على القهر النسائي الكبير، أمام اعتلاء الذكور وتفوقهم، ولا بأس من سرد بعض من هذه الرواسب التي خُلـدت فـي أذهاننا كقولهم: شاوروهن وخالفوهن..لم يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة، ما تولـت امرأة أرضا إلا خرُبت، النساء شقائق الرجال، النساء عـيٌّ وعـورة، ولا تفتـأ هـذه الرواسب تربط بين المرأة و(إبليس) وتجعلها أكثر اتصالا به من الرجال فهي مدعومة بمقولة (النساء حبائل الشيطان) وتكريسها بالأسطورة القائلة (خلقت المرأة مـن ضـلع أعوج) و يضيف تراث المرأة إلى ضعفها حيلتُها وعداوتُها للرجل، وتغريرها له منـذ أن جعلته يأكل من تلك الشجرة التي أنزلته من علياء الفردوس إلى عالم الأرض.

1ــ مولود فرعون، نجل الفقير، ترجمة:محمد عجينة، دط. الجزائر: (دت)، ديوان المطبوعات الجامعية، ص29.

ج) المرأة ونظرة المفكرين المحافظين التقليديين:

يوجد في عصرنا مفكرين محافظين ينظرون لدونية المرأة ويعلون من شأن الرجل عليها استنادا إلى القرآن الكريم من أمثال (عباس محمود العقـاد) الـذي أثـار هـذا الموضوع بشدة في كتابه (المرأة في القرآن) وعلى اعتبار أن للرجـال درجـة علـى النساء لأنهم قوامون عليهن، فهم متميزون عنهن فلا مساواة بين الجنسين مادامت غيـر متساويين في الميراث والشهادة، كما اعتبر العقاد بأن الرجل هو المرجع الاجتمـاعي لكل الأعراف المصطلح عليها في الأخلاق ويبرر ذلك في قوله: « أنانية الرجل خلـة يروضها وازع الأخلاق وأنانية المرأة خلة تتحكم فيها الغريزة ولا يقوى عليهـا وازع الفكر والضمير».[1] وهنا يُرجع العقاد سلوك الرجل إلى الثقافة، أمَّـا سُـلوك المـرأة فيُرجِعُهُ إلى الطَّبيعة والغريزة.

وكذلك حصرُ الكيد في النساء انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِـيمٌ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِهِنَّ إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ ﴾[3]، حيث يرى العقاد بـأن المـرأة تختص بأعمال الدسِّ والرِّياء والخفاء فهو يقول: « إن حبَّ الزينة أصل مـن أصـول الرياء يشاركها فيه الرجل في ظاهر الأمر ولكنه يخصها من جانب غير مشترك بينها وبين زينة الرجل... فإن الرَّجل يتزين ليعزز إرادته في طلب المرأة، وإنمـا تتـزين المرأة لتعزز إرادة غيرها في طلبها... وليست الزِّينة التي يُراد بها الإغراء بـالقبول كالزِّينة التي تُراد للإغراء بالطَّلب فإن الفـرق بينهما هو الفرق بين الإرادة والانقيـاد وبين من يريد ومن ينتظر أن يراد».[4]

وفي الوقت الذي ذهب فيه بعض المفكرين يبتكرون موجبـات شـرعية لضـرب المرأة، راح آخرون يتلطفون بتحديد مواصفات الضرب « الضرب هو ألا يجرها ولا يكسر لها عظما ولا يؤثر شيئا ويتجنب الوجه لأنه مجمع المحاسن ويكون مفرقا علـى بدنها ولا يوالى في موضع واحد لئلا يعظم ضرره».[5] ومع أن الشرع كان قـد حـدد

1ــ عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، (دط). بيروت:1967 ، دار الكتاب العربي، ص45 .

2ــ سورة يوسف، الآية [50].

3ــ سورة يوسف، الآية [28].

4ــ عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ص.18

5ــ المرجع نفسه ، ص203 .

مواضع ضرب المرأة فإن هؤلاء تمادوا في ابتكار موجباتها، فليس لها أن تعمل ولا أن تتعلم ولا أن تخرج من المنزل، وهو ما يجعلها محصورة في صورة المرأة القاصـــرة وكل ذلك يرسم صور غير مشرقة ما يزال كتاب ومفكرين في عصرنا يكررونهـــا لا لشيء إلا لسد سبل تطورها، وقهرها في تراثها ومجتمعها.

أما عن المفاهيم العامة التي ركز عليها المجتمع في نظرته للمرأة بأنها لا تتفـــوق في الحياة إلا عن طريق أنوثتها وتمجيده لسلبية المرأة، فيحضُّها على الاعتناء بجمالها الخارجي كي تتزوج وتحمل وتلد، في الوقت الذي يهجوا ايجابية المرأة الذكية الواعية ويدعي بأنها مسترجلة ومعقدة كي يلهيها عن تغيير قوام هذا المجتمع ــ الذي برأيي ــ لم يعرف التقدم إلا لأنه منع عن المرأة الوقوف إلى جانبه في سبيل الرقـــي والتطـــور نافيا قدراتها الفكرية إذ عدَّها بنصف عقل إن لم نقل دونه. « إن إنتاج إيديولوجية قمعية وظلامية فيما يختص بالمرأة، لا تزال تعكس مضامين إيديولوجية قائمة على تفضـــيل الذكر على الأنثى، على كل المستويات و في جميع الطبقات ويشاء التيار المحافظ فـــي الثقافة العربية المعاصرة أن يصور المرأة بأنها راضية بقناعها راغبة فيـــه... تـــورد (سلوى الخماش) نماذج من الأدبيات والروايات العربية الحديثة منها نمـــوذج لروايـــة "الباب المفتوح" (للطفية زيات) حيث نقرأ :"مالنا ومال التغيير... نِحنا نسوان" معناه أن النساء خارج التغيير... ما أدَّى دوره كاملا في تأخير الانفتاح النسائي على الثقافـــة».[1] وهذا النموذج يعكس نظرة احتقار المرأة لقدراتها ولعل ذلك راجـــع لســـلطة الرَّجـــل المطلقة في الأسرة (قد يكون أخاها الأصغر) وخوفها من القَدر الذي قد يفقدها معيـــل الأسرة لتتحمل وحدها مسؤولية الأطفال، والخوف من الطلاق لأتفه الأسباب وســـعيها للحفاظ بشكل وطيد على الأواصر التقليدية، كل ذلك يخلق الأرضية المناسبة لإيمـــان المرأة الأعمى بالمعتقدات التراثية التي تعمل على تمديد المسافة بينهـــا وبـــين الثقافـــة والتقدم.

كما أن فلسفة المجتمع وطبيعة العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة العربية وخارجها جعلت الأسرة تفضل الذَّكر لأنه الأَقوى في مُجتمع لا يؤمن إلا بـــالقوة الجســـدية « إن الوضعية المأساوية التي تعيشها كثير من الأمَّهات تجعلُ المرأةَ ترجوا أن يكون الَّـــذي

1ــ خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، ص.107

في بطنها ذكرا وليس أنثى، وبذلك تحقق كثيراً من الامتيازات منها الخطوة الزوجيـة والمكانة المرموقة في المستقبل المضمون في بيت الزوجية، والاستعداد للمستقبل بهـذا المولود الذي سيكون رجلاً يُؤَمِّن حياة الأمِّ بعد أن تعرَّضت للهوان أو ما شابه ذلك ».[1]

ونحن نجد فيما سجله أدبنا العربي وبالضبط في (الرواية العربية) عكـسٌ واضـح لهذا الطرح، فأم "كامل رؤبة" بطل رواية (السراب) لـــ: (نجيب محفوظ) أخذت تفرط في تدليل ابنها ورعايته لدرجة مبالغ فيها، بعد أن هجرها زوجها وبقيت وحيـدة معـه فكانت تركز كل عواطفها وحنانها عليه، أين ترى فيه حياتها ومستقبلها كله ، حتى بلغ بها الأمر أن وقفت حائلا بينه وبين زواجه، بحجة أنها كرست شبابها كله في رعايتـه وأنها كانت ترفض عروضا كثيرة للزواج فقط من أجله مطالبة إياه برد الجميل ليبقـى لها ومن أجلها فقط، ولعل تفسير تصرف هذه الأم على هذا النحو هو ما نجـده عنـد (جورج طرابيشي) الذي يقول: « كانت أم كامل رؤبة تُعوِّض عن فردوسها الزّوجـي الضائع بصب حنانها كله على كامل، لعل احتلال الابن لمكان الأب في عواطـف الأم ومشاعرها يجد تعبيره الأمثل في غيرة الأم على طفلها الذكر من النساء الأخريات ».[2] كما أعطت الرواية العربية نماذج عن الرفض الاجتماعي للمرأة كجنس وعدم الرغبـة في إنجاب البنات ــ والذي يكاد يُطابق إلى حد بعيد ذلك الرفض الذي شهده المجتمـع الجاهلي ــ نذكر منها ما أشار إليه الروائي (عبد الرحمن منيف)، إذ يجسد هذا الموقف (السلطان) في رواية (مدن الملح) الذي إذا بشرته القابلة بغلام « فلها كسـوة وحشـوة وقريشات*... أما إذا كان المولود بنتا فإنه في أغلب الأحيان تتـوارى وإذا سـئلت لا تجيب».[3]

وفي روايته (الآن) إشارة إلى أن الأنثى نقطة ضعف تضع الوالد موضع السخرية والازدراء وهو ما عانى منه (المساعد خليل) في سجنه حيث كان السُّـجناء إذا أرادوا إثارة حفيظته غنَّوا له « "ديك رومي مات، ما خلف إلا البنات". هو حينها يشتعل غضبا

1ــ صالح مفقودة، صورة المرأة في الرواية الجزائرية، ط2. بسكرة: 2009، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص68.

2 ــ جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، ط2. بيروت: 1981، دار الطليعةص.95

3ــ عبد الرحمن منيف، بادية الظلمات، ط4. بيروت: 1992، المؤسسة العربية، ص11.

* الحشوة ذبيحتان، والكسوة ثياب، والقريشات خمس مجيديات أو ليرة ذهبية عصملية.

ويهدد ويتوعد ».[1] هذه كانت جملة من الصور التي نقلتها الرواية العربية عن نظـــرة المجتمع للمرأة وتفضيل الذكور على الإناث ذلك أن الطفل هو الحامل للقـــب الأســـرة والوريث لها، وما نلاحظه هو أن هناك إبراز للنظرة الخاطئة التي يتمسك بها المجتمع نحو المرأة، لكن الأديب هنا لا يستطيع إلغائها، فهو يقدم موقع المـــرأة فـــي المجتمـــع العربي في مراحل محددة وبصدق.

د) المرأة في نظر المفكرين المجددين:

إن تمزق المرأة العربية بين الانقياد الاجتماعي للموروثات المختلفة، وبين طموحها في تحقيق ذاتها وحريتها ـ بالارتقاء إلى المشاركة في الحيـــاة الثقافيـــة والاجتماعيـــة والاقتصادية ـــ هو أساس توليد المسألة النسائية، والتي تبناها كثير من المثقفين الـــذين وقفوا إلى جانب المرأة العربية مبشرين بأوضاع جديدة قصد توفير البنى الاجتماعيـــة المواتية التي تمكن المرأة من القيام بوظيفتها الثلاثية (زوجة وأما وعاملة)، وقد تميـــز مطلع القرن العشرين بطرح قضايا المرأة على بساط البحث في طول الوطن العربـــي وعرضه، حيث نادوا بدعوات جريئة لتحرير النساء، ومن هؤلاء (رفاعة الطهطـــاوي) الذي استنكر الحالة المتردية للمرأة العربية، مطالباً بإصلاحها منادياً بضـــرورة تعلـــيم المرأة.

كما أثار (قاسم أمين) عدة مسائل يقف فيها إلى جانب المرأة في كتابيـــه(تحريـــر المرأة) و (المرأة الجديدة)، داعياً إلى ضرورة اختلاط المرأة بالمجتمع رافضـــا فكـــرة الانزواء المنزلي الذي يحجبها عن نير العلم ويضعها في دائرة من البلادة والحرمـــان. مؤكدا بأن الإسلام منح المرأة المسلمة حقوقا لم تعرفها نساء أي مجتمع آخر، نافياً بأن يكون الدِّين الإسلاميُّ قد وقف ضدَّ تعليم المرأة أو مشاركتها في الحيـــاة الاجتماعيـــة بقوله:« لو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد، لكانت المرأة المسلمة اليـــوم فـــي مقدمة نساء الأرض... و لا يزال عندنا من يعتقدون أن تربية المرأة وتعليمها، غيـــر واجبين، بل إنهم يتساءلون، هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعا أو هـــو محرم بمقتضى الشريعة؟... ففي رأيي أن المرأة لا يمكنها أن تدير منزلهـــا إلا بعـــد

1ـــ عبد الرحمن منيف، الآن... هنا، ط1. بيروت: 1991، المؤسسة العربية، ص409.

تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبية ».[1] كما لاحظ قاسم أمين أن المرأة عاشت في انحطاط شديد ــ زوجةً أو أماً أو بنتاً ــ لا شأن لهـا ولا اعتبـار ولا رأي خاضعة للرجل لأنه رجل ولأنها امرأة « فني شخصها في شخص الرجل، ولم يبق لها من الكون ما يسعها إلا ما استتر من زوايا المنازل واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات.. ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر إلى احتقارها وعدها عدما لا أثر لها في شؤونه».[2] وإن المتفقد لصورة المرأة في رواية (بـين القصـرين) لـ(نجيب محفوظ) يجد شخصية (آمنة) تمثل تلك الزوجة البسيطة القنوعة والمطيعـة لزوجها والصبورة على تسلطه رغم أنه يقضي الليل كله رفقة أصـدقائه فـي أمـاكن الفسق والفجور وما كان عليها إلا انتظاره لتخدمه عند عودته فجـراً « ولمـا تـدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الحية عنه وأطبقتها بعناية... وعادت إليه ففكت حـزام القفطان ونزعته... وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه، فقعدت عند قدميـه الممـدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه».[3]

كما أشار (لينين) إلى أن الانزواء المنزلي للمرأة وحجبها عن المجتمع كان سـببا في هدر طاقاتها وملكاتها الفذة وذلك بطمرها خلف جدران البيوت فيقول:« لقد قيـدنا المرأة بآلاف القيود وحجبناها عن المجتمع والعمل، ثم قلنا أنها ضلع قاصـر، وأنهـا ناقصة عقل، وأنها لا تصلح لغير البيت طهيا وتنظيفا، ومتعة، ومربية... لقـد قيـدنا أنفسنا عندما حرمناها من الثقافة والعلم... فأخطأ الرجل في حقها وفي حـق الـوطن وحرم نفسه ومجتمعه حق التطور والتقدم والعيش الأفضل».[4] وهنا إشارة إلى ضرورة إشراك المرأة في العمل المنتج من أجل النُّهوض بالمجتمع العربي ودفعه نحو التقـدم والتطور في مختلف المجالات.

ومن الأصداء الداعمة لتحسين أوضاع المرأة وإعادة الاعتبار لإنسانيتها، هو مـا خطته الأقلام المختلفة في مختلف أنحاء الوطن العربي « ظهر عبد الحميد حمدي الذي أسس مجلة أسبوعية عام 1915 سماها "السفور" كان من كتابها طه حسـين ومحمـد

1ــ خليل احمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، ص.104

2ــ المرجع نفسه، ص ص110ــ 112.

3ــ نجيب محفوظ، بين القصرين، دط. الجزائر: 1989، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص14، 15.

4ــ لينين، حول تحرر المرأة، تعريب: زينب نبوة، (دط). دمشق: 1970، دار الجماهير العربية، ص2.

حسين هيكل ومنصور فهمي ونجد صيحة هدى الشعراوي التي بادرت سنة 1920 إلى تأسيس لجنة الوفد المركزية للسيدات، وأسست الاتحاد النسائي المصري كما شـاركت في المؤتمر النسائي للرابطة الدولية للتصويت النسائي بروما سنة 1923..كما نشطت الحركات النسوية في الأقطار العربية الأخرى فقد عقد المؤتمر الأول للنساء في بيروت سنة1919، والمؤتمر الثاني سنة 1922 ، ومطالب مثل هذه الملتقيات والمـؤتمرات، الدعوة إلى المساواة بين الجنسين في الوظائف المهنية والحقـوق، ولا تـزال الأقـلام الداعية إلى تحرير النساء تؤكد نفس النداء ،نجد ذلك في ما تكتبه "نوال السعداوي" في مصر و"فاطمة المرنيسي" بالمغرب، و"زينب الأعوج في الجزائـر، وفاطمـة أحمـد إبراهيم من السودان ، كما نجد أصوات رجالية تساند قضية تحـرر المـرأة وتتبناهـا كمحمد بنيس في المغرب، والأعرج واسيني في الجزائر».[1] ويحضر لدينا مثال عـن اهتمام الكتاب بقضايا المرأة ووقوفهم إلى جانبها منادين بحريتها، يتمثل فيما كتبه (طه حسين) في سجال دار وبينه وبين أحد أعلام الحزب الوطني في مصر الشـيخ (عبـد العزيز جاويش) حول موضوع "السفور والحجاب" حيث يقول:« لا فرق بين المـرأة والرجل في الحرية... لها أن تطرح النقاب وترفع الحجاب، وتتمتع بملذات الحياة كمـا يتمتع بها الرجل، وليس عليها إلا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسـها وزوجهـا والنوع الإنساني كافة، هذا هو حكم الإسلام وهو رأينا الذي لا نحيد عنه، ولا نعدل به رأيا آخر».[2]

وعلى إثر هذه الحركات الفاعلة في سبيل التأكيد على إنسـانية المـرأة أصـبح بإمكانها معرفة الحياة ووعي الوجود حيث لم تعد موضوعة خارج الكتابة، حفاظا على السلطة الجنسية للذكر بل أصبحت داخل الكتابة، داخل التاريخ والثقافة. حيـث صـار الرجل أكثر فأكثر يؤيد إشراك المرأة في حل قضايا المجتمع والأسرة ويدرك أهميـة ثقافتها ودورها في تربية الأجيال.

من خلال ما سبق يتبين لنا الفرق الواضح بين آراء التقليديين وآراء المجددين في تحديد صورة المرأة في المجتمع العربي، إذ يصور الفريق الأول المرأة بأنها ليست إلا أمًّا وربَّة بيت وزوجة ولا ينبغي لها إلا الانعزال والتستر، في حين يصورها الفريـق

1ــ صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ص24ــ 25.

2 ــ عبد الرزاق عيد، طه حسين العقل والدين، ط1. حلب: 1995، مركز الإنماء الحضاري، ص58.

الثاني بأنه بالإضافة إلى الدور المناط لها في المنزل فهي أيضا تلك المـــرأة المتعلمـــة المتحررة والأكثر قدرة على تنفيذ الدور الذي حددته لها الطبيعة.

وعليه فإنه إذا أردنا الفصل في قضية المساواة بالمعنى الذي يضمن للمرأة العربية ما تنشده من حقوق في مجتمعها، يجدر بنا أولا أن نسلِّم بأن اللاَّمساواة بـــين المـــرأة والرجل أمر ثابت في القرآن والشريعة، وإن وجد ما يبرره علـــى نحـــو مـــا أشـــار إليه(سيد قطب) في قوله: « فإذا كان ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ فذلك بسبب التزاماته الخاصة بالنفقة على الزوجة والأطفال وهكذا يعتبر الرجل في جميع الحـــالات الســـند والركيزة بالنسبة للمرأة».[1] ونحن نقرأ قوله تعالى ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[2] كما أن تميز الرجل علـــى المـــرأة لا يعني أنه قادر على ممارسة نشاطه الاجتماعي والحياتي دونها، فهي تشاركه في تحمل مسؤولية مصير الأسرة، لذلك فمهما كان عنوان المرأة في المجتمع كـــ(زوجة أو أم أو أخت) فمن واجبها أن تكون سندا للرجل في بيته، فتكون الحامية لعشها العائلي فتعـــيش همومه وشؤونه، فتخدم زوجها، وتربي أبنائه، وهذا لا ينقص من قيمتها كإنسانة، بـــل على العكس فإن تجاهل دور المرأة في الأسرة استهانة بأقدس أمانة قلـــدها المجتمـــع الإنساني للمرأة، وقدره الإسلام حق قدره بأن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات.

1ـــ لويزا تشايدوليا، المرأة العربية والعصر، ترجمة: شوكت يوسف ،(ط). بيروت: (دت)، دار الجيل، ص135. والآية رقم 11 من سورة النساء.

2 ـــ سورة النساء، الآية 34.

خامسا: أثر الرواية في تحسين صورة المرأة

تحتل المرأة العربية مكانة بالغة الأهمية في المجتمع، لذلك كانـــت محـــل اهتمـــام الأدباء وخاصة الروائيون منهم، فغالبا ما نجدها هي الشخصية المحور ونقطة الارتكاز التي تدور حولها أحداث الرواية، أين تناول كل واحد من هؤلاء صورتها على اختلاف مراتبها في المجتمعـــ زوجة أو أما أو أختا...الخ، كل حسب منظوره، حيث تبرُ هـــذه الصورة من خلال ما يبديه الكاتب من آراء وتصورات وصفات ومميزات يتمنـــى أن يراها أبطال رواياته في المرأة أو يدعو إلى تغييرها.

كما أن فن الرواية يتيح للمرأة التعبير عن أحوالها النفسية وعرض آلامها وآمالهـــا إذ« تُظهر الأعمال الروائية بأن المرأة العربية كائن إنساني لها عقل مفكـــر وأهـــداف سامية ولها تطلعاتها المشروعة لتكون فاعلة في المجتمع لتشارك في بنائه وتقدمه، ومن ثمة التحريض على تغيير طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة فتنتقل مـــن التبعيـــة إلـــى المشاركة المتساوية ومن الامتهان والاحتقار،إلى الاحترام ومن الشك والريبة إلى الثقة والتعاون».[1]

وكثيرا ما كان تصوير الحالة النفسية للمرأة الشغل الشـــاغل للأدبـــاء، ولا بـــأس باقتطاف بعض الصور العامة التي التقطها الروائيون من عمق المجتمع العربي علـــى نحو:

- (محمد حسين هيكل) الذي تطرق إلى ذلك في روايته (زينب) تلك الفلاحة التي أحبت عاملا زراعيا من طبقتها، غير أن الأقدار لم تشأ أن تجمعهما، إذ خطبت لغيـــره وسيقت إلى بيت الزوجية كشاة ضالة، فليس لها من أمرها في شيء بعد أن تصـــرف والدها في يدها دون مشاورتها « وبقي أن تجيز هي عمل شخص أعطته الطبيعة مـــن السلطان أنه أبوها، فهل الفتاة تقدر من بعد ذلك على رد ما عمـــل».[2] وهنـــا تظهـــر (زينب) في صورة المرأة المسلوبة الإرادة وهو ما اضطرها إلى التمزق بـــين عامـــل الوفاء للحبيب وعامل الإخلاص للزوج، وهو ما جعلها تبدوا في صورة العاجزة التـــي حرمت من سعادتها، وفي حركة من حسين هيكل حاول بها تغيير ذلك الوضع الـــذي عانت منه كثيرات من النساء العربيات، أطلق صرخة على فم "زينب" وهي على فراش

1ـــ فاديه المليح الحلواني، المرأة في روايات قمر كيلاني، مجلة جامعة دمشق، دمشق: 2005، ، العدد (1+2) المجلد21، ص 42.

2ـــ محمد حسين هيكل، زينب، ط1. القاهرة: 1914، دار المعارف، ص105.

الموت: « فضِلت أَعيَّط و أقُولِك يا امَّة ما بدِيش أجَوَّز تقُولي لِي كـلّ النَّـاس أبـوهم بيجوِّزهم على غير كيفهم.. وصيِّتكوا أخَواتي لما تيجو تجوِّزوا حد منهم ما تجوِّز همش غصب عنهم لحسن دا حرام».[1] هي إذن دعوة ترفعها الرواية من أجل لفت الانتباه إلى الظلم الذي يمارسه بعض الآباء إزاء بناتهم، والوعي بعظم الضرر النفسي الذي يلحق بالمرأة من جرَّاء ذلك.

○ كما نبه (توفيق الحكيم) في روايته (الرباط المقدس) إلى أن المرأة تَنشـد مـن الرَّجل الفهم والحب وأن يتعامل معها ككائن بشري له إرادته « المرأة يجب أن تفهـم الرجل أنها مساوية له، وأن الأمر بإرادتها هي أيضا».[2] هي مقولة بطلة الرواية التـي عانت إهمال زوجها العاطفي المنشغل بعمله في الخارج، وبقراءاته في الـداخل، مـا وضعها في أزمة نفسية «..آه...إني لأكاد أجن في عزلتي النفسية، لاشيء يخفف مـن شدتها أو يلطف من وقعها..آه..الحياة..الحياة..أريد أن أذهب إلى حيث تدفعني أهـوائي وتدعوني رغباتي..لا أن أقعد كعصفور كسروا جناحه».[3] تظهر بطلـة الروايـة فـي صورة المتمردة على الحياة، نتيجة معاناتها النفسية جراء إهمالها عاطفيا.

○ وإن كانت بطلتا هاتين الروايتين قد تجرعتا أزمتيهما النفسية في صمت فهنـاك من الروائيين من دفع المرأة في دائرة (التغيير). فإن (زهرة) بطلة رواية (ميرامـار) لـ(نجيب محفوظ) قد رفعت التحدي أمام كل من يضع المرأة في حلقة العيب ويربطها بالعار، فزهرة هي صاحبة قراراتها إذ ترفض أن تكون موضوعا جنسيا ومحض جسد على الرغم من جمالها الفائق فكانت تحرص بكل ما لزمها من قوة أن تكون هي صانعة قراراتها ومصيرها فـ:« عندما تقدم محمود أبو العباس لخطبتها، أبت بأن تعطيه يدها لأنه لا يرى فيها سوى جسد للفراش والإنجاب، ولا يستطيع أن يفهـم طموحهـا فـي الارتقاء إلى المستوى الإنساني و الحضاري الذي تنشده منذ سمعته يقول لصاحبه بـأن النساء تختلف في الألوان ولكنها تتفق في حقيقة واحدة، فكل امرأة حيوان لطيـف بـلا عقل ولا دين، والوسيلة الوحيدة التي تجعل منهن حيوانات أليفة هي الحذاء».[4] نجد أن

---

1 ــ محمد حسين هيكل، زينب، ص.239.

2ــ توفيق الحكيم، الرباط المقدس (دط). القاهرة: مكتبة الآداب، ص151.

3ــالمرجع نفسه، ص117.

4ــ جورج طرابيشي، رمزية المرأة في الرواية العربية،(دط).بيروت:(دت)،دار الطليعة للطباعة والنشر ص122ــ 123.

نجيب محفوظ يفضح نظرة الازدراء التي ينظر بها الرجـل ــ أو المجتمـع ــ إلـى المرأة، وراح يردُّ عليه على فم (زهرة) « إنك تراني شيئا حقيرا لا يجوز له أن ينظر إلى فوق... أمن العيب أن أحب لنفسي حياة كريمة؟».[1] تظهر لنا (زهرة) وهنا يلمـح نجيب محفوظ إلى أنه من حق المرأة أيضا أن تصبوا إلى حيـاة كريمـة تحقـق بهـا إنسانيتها و هي صورة لا تقتصر على وصف عواطف المرأة فحسـب بـل وربطِهـا بالواقع وبالحياة أيضاً.

كما ساهمت الرِّواية العربية في تغيير صورة المرأة وساعدتها على تجاوز ضعفها بالاعتراف بدورها الفاعل في المجتمع فهي التي تلد الرجل وتربيه وتجعل منه رجـلا فمن أين لها الضعف والقصور؟

- فالأم في رواية (شرق المتوسط) لـ:(عبد الرحمان منيف) نابت مناب الأب بعد رحيله فكانت تعيل الأسرة، تسعى إلى تعويض أبنائها عن غيابه حيث ظلت واقفة إلـى جانبهم « وعظمة الأم في شرق المتوسط أنها تحدت الصورة الشائعة عن الأم المتخاذلة الباكية... فبخلاف الأمهات جميعا وبخلاف القالب النمطي الـذي يصـب لهـن فـي المجتمع، أدركت أن أعظم دور يمكن أن تؤديه كأم هو أن تكون لابنها من جديد أباً».[2] ولأن المرأة تتفاعل مع البيئة التي تعيش فيها، فهي تسعى من أجل تحسين أوضاعها و« إصرار المرأة ــ غالبا الأم ــ على العمل فيه تأكيد على رغبتها في المشاركة العمليـة وتحملها المسؤولية ، لتأكد ذاتها، ومن أجل مساعدة الرجل الذي يتكفل وحده بالمسؤولية لبقاء الأسرة التي تعيش في ظروف قاهرة».[3]

- فالمرأة العاملة في نظر (حنا مينة) لا تكتفي بالإيمان بالغد فحسـب بـل تـدعم إيمانها العملي «..بما يتمثل فيها من إرادة خلق الواقع الايجابي».[4] حيث يقدم شخصـية (أم بشير) وهي تعبِّر عن اقتحامها للحياة متحدية جميع الظروف الصعبة، فهي امـرأة تعي جيدا أهمية العمل، وتفتخر بقدرتها عليه فهو الذي يضمن لها الحيـاة « الحيـاة لا تقتل إلا الذي يخافها، و أنا بحمد الله، لا أخاف الحياة ...أنا امـرأة ورجـل...ربيـت

1ــ جورج طرابيشي ، رمزية المرأة في الرواية العربية،ص.123

2ــ جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، ط2. بيروت:1981، دار الطليعة ص (63، 65).

3ــ غدير رضوان طوطح، المرأة في روايات سحر خليفة، رسالة ماجستير الدراسات العربية المعاصرة،2006، جامعة بير زيت، ص 34.

4ــ صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي (دط). القاهرة: 1978، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 57.

أولادي وزوجتهم، وربيت نفسي وعملت الخير».[1]وهو ما يزيح عن المـرأة صـورة القصور.

ومهما كانت الصورة التي ينقلها الروائي فإنها تترك أثرها في المتلقي قد تقوم وعيه بجوانب خفية في المرأة كان يجهلها ويدرك حقوقها لتتحسن نظرة المجتمع إليها ويعتمد الروائي في كل ذلك على:

- ❖ إبراز صورة المرأة انطلاقا من تحديد ظروفها الاجتماعية التي نشأت فيهاذ ومدى انعكاس هذه الظروف على سلوكها الذي غالبا ما يحدد مصيرها.
- ❖ يأخذ الأدباء على عاتقهم مسؤولية المساهمة في تصوير واقع المـرأة العربيـة بهدف رفع مستواها من خلال ما يتراءى له من صور، سواء بتقويم سـلوكياتها أو الدعوة إلى إعطائها حقها من الاهتمام والتقدير لإنسانيتها مهما اختلفت بيئتها ومستواها الثقافي.
- ❖ لطالما كان هذا النوع من الأدب ميدانا فسيحا للكشـف عـن نـوازع المـرأة وأفكارها التي لم تتمكن من الإدلاء بها خاصة في المجتمعات التي تحـدد فيهـا العادات والتقاليد مصير نسائها.

ومن هنا اكتست صورة المرأة في الرواية العربية أهمية بالغة والتي احتلـت فيهـا نصيبا أوفى وأوفر، إذ عمد الروائيون في أعمالهم إلى تحسين صورتها من خلال طرح صور متعددة لها على اختلاف مستوياتها وبيئاتها ومواقعها في المجتمع. وليس بعيـدا عن الموضوع فقد خصصت الفصل الموالي لعرض مفصل لصورة المرأة كما جاءت في رواية (دعاء الكروان) لـــ: (طه حسين).

1ـــ حنا مينة، الثلج يأتي من النافذة، ط5. بيروت: 1985، دار الآداب، ص117 .

الفصل الثاني

تجليات المرأة في رواية

"دعاء الكروان لطه حسين "

تتيح الرواية بمساحتها المفتوحة، أن يعرض الأديب رؤيته لصورة المرأة كما هي في الواقع أو كما يريدها أن تكون، « فمعالجة الأصناف الأدبية لموضـــوع المـــرأة تمتـــاز بالحرية في التناول والجرأة في الطرح وإعطاء التصور الذهني والبديل للصورة المثلـــى للمرأة كما يتخيلها الروائي ».[1] مما يحقق أهمية بالغة في تحسين الصورة العامـــة التـــي ينظر بها المجتمع العربي للمرأة.

وإن المطلع على رواية (دعاء الكروان) لطه حسين يجد أنها تنطوي ضمن (الروايـــة التحليلية) التي « تغلب عليها الطريقة التحليلية النفسية في المعالجة الفنية للأحداث، حيـــث يمزج فيها الفنان مع نبرة "الاعتراف" تصوير الأهواء وفن الحيـــاة الأســـرية والحـــوار والاستحضار الفني للحياة البرجوازية والسرد المتقن وهي إذ تصرفنا عن مختلف مظاهر الواقع إنما تدعونا إلى أن نعيش في عالم العواطف، حيث أن تجربة كـــل أديـــب تحمـــل (خصوصية معينة) تبلور رؤيته للواقع وطريقته الفنية في معالجته، إذ تتيح لـــه الروايـــة الغوص داخل الذات بحرية كاملة ويستعرض كل ما يتصل بها ويبرر وجودها عن طريق المونولوج الداخلي، كما أن تطور الصورة في هذا النوع من الرواية يعتبر تطورا طبيعيا للجرأة في تناول الصورة الفنية المنعكسة عن واقع أكثر تطورا».[2] ولعل هذا ما أكســـب رواية (دعاء الكروان) سمة الخلود، فهي مستقاة من واقع المجتمع المصـــري القـــديم إذ تعرض صور مختلفة متعلقة بواقع المجتمع المصري خاصة والمجتمـــع العربـــي عامـــة ونحن نجدها:

- تصور حياة المصريين في طوائف البدو و الفلاحين.
- كما تصور مشاكل التعليم.
- وهي تلامس بخاصة صورة واقع كثير من المجتمعات العربية المعاصرة في انتهاكها لحقوق المرأة واستغلال ضعفها ولقد حولت الرواية إلى فيلم سينمائي ناجح يعتبـــر مـــن أفضل ما أنتجته السينما المصرية. وصورة المرأة في هذه الرواية هي المقصودة بالدراسة حيث أسعى إلى استظهارها كما وردت في رواية (دعاء الكـــروان) لـــــ(طـــه حســـين) كأنموذج عن الرواية العربية.

1ــ صالح مفقودة، صورة المرأة في الرواية الجزائرية، ص12

2ــ ينظر، طه وادي، مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية، ص 61.

تجليات المرأة في رواية "دعاء الكروان":

قبل أن أباشر في عرض الصور المختلفة التي ظهرت بها المرأة في روايـــة (دعـــاء الكروان) لـــ:(طه حسين) يجدر بي أن أنوه إلى أن بؤرة التوتر في هذه الرواية تبرز من خلال الصراع بين التقاليد والطموح إلى التجديد، والإعلان على الرغبة سواء أكانت ثقافية أو نفسية والحلم باللقاء عوض الانفصال والبعد، مما أضفى على الرواية صـــورا مكثفـــة تتجلى في حضور المرأة وغيابها في بؤرة هذا التوتر، مما جعل صـــورة المـــرأة تأخـــذ أشكال متمايزة.

أولا: صـــورة المـــرأة المستلبـــة: (الـــزوجة، الأرملـــة، الأم)

إن صورة الزوجة أو ــ الأم ــ في الرواية العربية تأخذ قالبا يكاد يتكرر في أغلبهـــا وهي مستوحاة من واقعها الاجتماعي، إذ تبدوا امرأة مستسلمة لإرادة زوجها لا تعتـــرض على تصرفاته، و تعمل على لم شمل أسرتها ولو على حساب إنسانيتها، و هذه الصورة لا تختلف كثيرا عن صورة الزوجة الأم في (دعاء الكروان) فـــ: (زهرة) امرأة بدوية ريفية متواضعة وهي زوجة و أم لابنتين (هنادي وآمنة) وكانت صورتها كالآتي:

أ) الزوجة الخاضعة للزوج:

يعرَّف الزواج على أنه: « ظاهرة اجتماعية هامة لتكوين الأسرة والربط بين الـــذَّكر والأنثى ربطا ينتج عنه التوادُّ والتآلف والسَّكن ولقاء النوع بصورة منتظمة، وقد خصصت له المجتمعات قوانين مدنية وأكدت عليه الشرائع السماوية ».[1]

وأجد أن (طه حسين) يعرض في روايته الصورة العامة للزواج من منظـــور ذلـــك المجتمع القبلي الذي تدور فيه أحداث الرواية، إذ يعطي لمحة عن صورة المـــرأة هنـــاك ونظرة المجتمع إليها إذا أصبحت شابة يافعة في سن الزواج وأسرع إليها الخاطبين مـــن الشباب لتكون خادمة في بيت زوجها أكثر من كونها زوجة، ويوضح ذلك على فم (آمنة) في وصفها لحال الحياة التي تعيشها فتيات الريف وكيف أنهن « يقضين حياتهن هادئـــات

1ــ صالح مفقودة، صورة المرأة في الرواية الجزائرية، ص20.

ناعمات، حتى إذا تقدم بهن السن وأدركتهن ميعة الشباب ونظرته سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أومن شباب القرى المجاورة، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الخيام، واستقبلت حياة الجد والعمل والكدّ، والإشفاق».[1]

ومن هنا جاء تصوير (دعاء الكروان) لقضايا هامة جدا لطالما أرهقت وأتعبت كاهل المرأة وخلفت في قلبها جراحا عميقة، إنها قضية معاناة المرأة تحت وطأة الرجل، ومـــن بعد ذلك نظرة المجتمع التي تسيطر على أفراده وتؤثِّر فيهم لدرجة تغيير مجرى حياتهم.

فـــ: (زهرة) في هذه الروايـــة تبدوا في صورة المرأة الخاضعة للرجل (الـــزوج) هذا الماجن الذي عليها أن توقره حتى وإن لم يكن أهلا لذلك فقط لأنه هو الرَّجل وهـــي امرأة في مجتمع ذكوري بالدرجة الأولى، الذي لا يؤمن إلا بالقوة أمام اســـتلاب المـــرأة ونعتها بالضعف والقصور حتى صدقت ذلك عن نفسها، وعمد (طه حسين) في استظهار هذه الصورة إلى تصوير مشاعر المرأة بكل ما فيها من قلق وخوف وغيرة، فزهرة هـــي زوجة عانت من زوج كان بمثابة أداة تعذيب لها أكثر من زوج، فهو رجل قاسٍ ومهمـــل لأسرته « لم يكن أبانا صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة، وإنما كان زير نســـاء يحـــب الدعابة والمجون ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم ».[2] إذ ذهب ضحية مجونـــه وشهوة من شهواته الآثمة و « صرع بما لا يشرف به صريع ».[3] مما طبع علـــى حيـــاة أسرته البؤس والشقاء.

ومع كل ذلك بدت (زهرة) في صورة الزوجة المستسلمة التي ترى بـــأن مـــن واجب المرأة أن تكون امتدادا لزوجها، لذلك كانت تنفي عن نفسها إنسانيتها وتفقد أمامـــه شخصيتها، وتكيف نفسها حسب ما تقتضيه رغبته ــ كأن قسمة نصيبها تقتضي أن تكون ــ لا قيمة لها سوى رضاه عنها، (فزهرة) كانت تحب زوجها وتغار عليه بل وتشفق عليه على الرغم مما ألم بها من البؤس طول حياتها بسببه، وما آذى نفسها من الذل ومـــا روع قلبها من الخوف «..فكم حرقتها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة وتشفق منها على زوجها هذا الماجن، فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره، وكانت

1ــ طه حسين ،دعاء الكروان، ص.76

2ــ المرجع نفسه، ص 19.

3ــ المرجع نفسه ص 26.

تعلم أنه كان يهيأ لنفسه عداوات خطرة في كل مكـــان بفجـــوره».[1] إن (زهرة) كانت قانعة بوضعيتها هته التي تحطها إلى درجة (اللاإنسان) فهي لا يمكنهـــا أن تتخيل نفسها بعيدة عن هذا الزوج بالرغم من أنه مصدر تعاستها وهو أمر طبيعـــي فـــي مجتمع يهيمن عليه الموروث السلبي المتمثل في العقلية الرجعية التي تقول بـــأن المـــرأة خلقت لتطيع زوجها لتكون بذلك نموذجا للمرأة المثالية التي يجب على كل أنثى الاحتـــذاء به.

* * *

ب) الأرملـــة التي نبذتهـــا الأســـرة:

من جهة أخرى صورت (دعاء الكروان) ما تلاقيه المرأة من نظرة دونيـــة مـــن طرف المجتمع إذا ترملت أو أصابها خطب في أسرتها، وهذا بالضبط مـــا حصـــل مـــع (زهرة) التي أصبحت محط نظرات الازدراء في قريتها عندما فقدت زوجها الماجن الذي ألحق بها وبابنتيها العار فأنكرتها الأسرة إنكارا فهم قوم « لا ينظرون إليها إلا شزرا، ولا يعطفون عليها إلا كرها، ولا يتحدثون عنها إلا في سخرية، ورحمة شر من السخرية ».[2] وأخرجوها من القرية ثم نفوها من الأرض وجعلوها تعرف حياة البؤس والشقاء ليست أقل روعا من ذي قبل« وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتيها التعيســـتين وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء تكره مكانهن منها، وتنفيهن عن الأرض وتكرههن على الاندفاع في أرض الريف يلتمسن حياتهن فيها يائسات شقيات ».[3]

ج) الأم المستسلمة للخطوب:

إن المعنى الحقيقي لوجود الأم يكمن في أمومتها لاسيما في مجتمع ســـمته الأساســـية الذكورية، الذي مازال يغلق الأبواب في وجهها تحت ذرائع ومفـــاهيم تؤكـــد اعتـــزازه بذكوريته لذلك فان أكثر شيء يشعر المرأة بوجودها إنسانيا هو الأمومة ، فالأمومة وحدها

1ــ طه حسين ، دعاء الكروان، ص26

2ــ المرجع نفسه، ص27 .

3ــ المرجع نفسه، ص27 .

« هي التي تشعر المرأة بأنها إنسان، وهي التي تلقي على منكبيها ثوب الكرامـــة الـــذي طالما ضن به عليها مجتمعها الاضطهادي ».[1]

لذلك فالمرأة (الأم) في الرواية العربية غالبا ما تكون مدفوعة نحو النضال والتضحية إما لسبب غريزي يعبر عن حمايتها لأطفالها، وإما لسبب نفسي بدافع تأكيـــد حضـــورها الإنساني و الاجتماعي، والأمومة هي:« المهرب من الأنوثة لا تتويجهـــا، وهـــي الملجـــأ الطبيعي للمرأة عندما تنسد في وجهها كل الملاجئ الأخرى ولاشك في أن الأمومة هـــي مصدر تعويض لها ولكن الإنسان المستلب هو وحده الذي يحتاج إلـــى تعـــويض وبهـــذا المعنى تكون الأمومة توكيدا للاستلاب لا تحررا منه ».[2]

وقد بدت (صورة الأم) في هذه الرواية سلبية نوعا ما، وإن كان هناك ما يجبرها على أن تبدوا في تلك الصورة. فبعد مقتل الزوج ظلت (زهرة) هذه الأم البائسة وحيدة تصارع الحياة أمام إنكار الأسرة التي لم تنصفها ودفعت بها إلى تلك المدينة الواسعة تلتمس مـــن أصحابها عملا يرغد عيشها « كانت أمُّنا تدور فيها بنفسها وبِنا على البيوت تعرض نفسها وتعرضنا للخدمة كما تُعرض الإماء على السادة ».[3] فـــ (الأم زهرة) لم تدعها ظروفهـــا الاجتماعية القاسية من القيام بدورها الطبيعي كأم ولعل هذا ما جعلها تبدوا فـــي صـــورة المرأة المستلبة ، فلم تمنح ابنتيها عطفا كافيا بل على العكس كانت تتشرب العطف منهما، إذ بدت ضعيفة مستسلمة للخطوب والأحزان وهذا ما دعا ابنتها (آمنة) إلى القـــول« ... وإذا حُزنها العميق قد أفاض على وجهها الشَّاحب وألقى عليه مثل وداعة الأطفال هنـــاك أحسست من نفسي قوة وشعرت كأني أنا الأم زهرة و كأنها هي الفتاة آمنة».[4]

تميزت(زهرة) في هذه الرواية كونها تمثل صورة الأم، أحيانا بالبســـاطة والســـذاجة وأحيانا بالجهل الممزوج بالخوف الفطري على ابنتيها « قالت وقد انحدرت دموعهـــا: لا أصنع شيئا ولا أدري أين أذهب بكما، وإنما أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة المبـــوءة ».[5] إذ كانت منطوية على نفسها محزونة لحالتها المتأزمة، فكان مبلغ همها الهروب مـــن

1ـــ جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، ص95.

2ـــ المرجع نفسه، ص.96

3ـــ طه حسين ،دعاء الكروان ، ص 22.

4ـــ المرجع نفسه، ص 41 .

5ـــ المرجع نفسه ، ص41.

ذلك الوضع والتستر خوفا من العار، فهي امرأة « فرضت على نفسها حيـــاة الشـــيوخ: حرمان متصل، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة... واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدني من الموت ».[1]

إذن (الأم زهرة) هي صورة لتلك المرأة المحزونة لأمسها اليائسة من غدها المعرضـــة عن يومها، وهي المغلوبة على أمرها التي لا تملك لنفسها شيئا، فمن أيـــن لهـــا العطـــف لتعطف به ومن أين لها الحنان حتى تضخه على ابنتيها المحرومتين، وكيف لفاقد الشيء أن يعطيه.

* * *

ثانيا: صـــورة المـــرأة الضحيـــة

لقد صورت (دعاء الكروان) الظلم والاضطهاد الذي يقع على المرأة من جراء الانقياد والطاعة العمياء للعرف والتقاليد البالية المنبنية على أساس الجهل، الذي يجرُّ هو الآخـــر على المرأة ويلات كثيرة إذ كان محتوما عليها أن تكون ضحية الغفلة والبلاهة والحرمان أمام سطوة التقاليد البالية التي تضفي على الجنس الأنثوي العجز والقصور، وكلها صور تناولتها الرواية في هذه الدراسة:

أ) ضحية الجهل والغفلـــة:

مثلت صورة الضحية في هذه الرواية (هنادي) هذه الفتاة التي نشأت في بيئة ريفيـــة متخلفة في واقعها الاجتماعي ، قاسية في علاقاتها التي تحكم واقع المرأة وتسحق إرادتها. فـــ: (هنادي) هذه الفتاة الجاهلة الغافلة وقعت ضحية (الباش مهندس) ذلك الشـــاب الـــذي استغل جهلها وضعفها ودفعها دفعا إلى الموت حين زين لها الحياة بزيف الترف والنعـــيم « أسرعت إلى ما كان يتراءى لها من ذلك جاهلة له، مفتونة بـــه، متهالكـــة عليـــه، ثـــم انصرفت كارهة عما بلت... واستنفذت (هنادي) حظها من الحياة وماتت لأن شابا آثمـــا أغواها ولأنها لم تحسن أن تدفع عن نفسها غوايته ».[2]

ولابد لواقع اجتماعي متخلف كهذا تقبع في قيوده المرأة الريفية (الشابة) من أن يعلي نوازع الكبت ويحول دون تفتح الغرائز ونموها نموا صحيحا. فماذا كانت ستهيئ الحيـــاة

1ـــ طه حسين، دعاء الكروان ، ص 38 .

2ـــ المرجع نفسه، ص ص82 – 87 .

لأمثالها من الفتيات الضعيفات البائسات اللاّتي نبذتهن الأسرة أو اجتثتهن الخطـــوب مـــن أصولهن فهن مشردات « يستقبلن الحياة جاهلات بها غافلات عنها، والحياة تلعـــب بهـــن تقذفهن من مكان إلى مكان، وتنقلهن من شر إلى شر، ينتهي بهن القضاء غـــالى الغـــول المتنكر، فإذا هن فريسة لهذا أو لذاك، يلقين العار والخـــزي، و يلقـــين البـــؤس والظلـــم ويلقيـــن المرض والشقـــاء ويلقين الألم دائما ويلقين الموت أحيانا».[1]

ب) ضحية العرف والتقاليد القاسية:

يضم العرف مجموعة العادات والتقاليد المتعارف عليها في مجتمع معين و المتأصلة في جذوره والمنتقلة من جيل إلى جيل والمتوارثة أبا عن جد والذي غالبا ما يصبح قانونا معمولا به في ذلك المجتمع ليعاقب كل من يميل أو يخرج عن هذا القانون.

بعد أن تعرضت (هنـــادي) لتلك الكارثـــة العاطفيـــة، كانـــت تعلـــــم أن مصـــيرها محســـوم ولا منـــاص من تغييره خاصة وأنها تعلم جيدا أن الرّجل الوحيد في أســـرتها وهو الخال ناصر، لا تعرف الرّحمة أو الشّفقة طريقا إلى قلبه، « وهي من أجـــل ذلـــك كانت ذاهلـــة ذهولا متصلا..فقد أسلمت نفســـها للقضـــاء واستيقنت أن خيـــر مـــا فـــي حياتها قد انقضى».[2] فكانت صامتة عميقة التفكير متأملة، تحضها الرغبات الدفينة، التي لم تعرف كيف تناضل من أجلها، ولعل هذا الضعف والجبن قد ورثته عن أمها التي كانت ترى أن الأمر كله يعود للرجل فمنه وله تصدر الكلمة الأولى والأخيرة.

وقد صورت (دعاء الكـــروان) القوة التي يسيطر بها العـــرف على النفوس حتـــى يتمكن منها، ومـــا كان يملأ قلب (هنـــادي) من القلـــق والـــروع، واليـــأس والقنـــــوط والخوف الذي كان « يبعث في جسمـــها رعدة قويـــة توشك أن تدفعـــها إلى الوثوب... تدفع فتندفع، لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تُـــظهر المقـــاومة، يا لـــها مـــن قـــوة هائلـــة تسيطـــر على النفوس فتمحوا حظها من الشخصيـــة والإرادة محوا، هذه القـــوة الـــــتي يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمات!».[3]

1ــ طه حسين، دعاء الكروان ص99.

2ــ المرجع نفسه، ص71 – 72.

3ــ المرجع نفسه ، ص.72

لقد صرعت الضحية (هنادي) بسيف العرف الممثل في (الخال ناصر) هذا الرجـل الذي لم يسأل عن تلك الأسرة ــ التي تشردت ــ ساعة شدتها وعسرها، ولم يحـاول أن يزيل أسباب تعاستها قبل محاولته تأديب من يخرج عن العرف والتقاليد.

ومن أروع ما صور سرد هذه الرواية بشاعريته المناسـبة مأسـاة (هنـادي) تلـك الصورة المنكرة البشعة التي تركت ظلا أسود وتثير الشفقة عل تلك التي أغمد الخنجر في صدرها « وجسمها يضطرب و يتخبط ودمها يتفجر و لسانها يضطرب ببعض الحـديث في فمها، ثم يهدأ الجسـم المضطرب ويسكن اللسان المتحرك ويخف تفجر الدم و يمتلئ الجو بهذا السكون الأليم سكون الموت... إنما هي مكبة على هذا الينبوع تنظر فيـه كمـا الفتاة الجميلة فـي المرآة عم تبحث في هذا الينبـوع؟ أتراهـا تلتمس صورتهـا في هذا الينبـوع الأحمر المتدفق... لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله..».[1]

إن هذا السرد الرائع لهذه المأساة في صورتـها المروعة إنمـا يشف عما يؤدي اليه سلطان الجهل حين يعلوا على العقل من زهق للأرواح البريئة، كما يشف عن ما تعانيـه المـرأة من قسوة في ذلك المجتمع الذكوري الذي لا يعرف إلا الترويع والتخويف، على نحو ما خاطب به (الخال ناصر) أخته وابنتها بعد فعلته الشنيعة من كلمات مليئة بالنـذير في غير ندم « تعلمـان والله أن هنادي ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا الوبـاء الذي ألم بها منذ أسابيع ».[2]

ولم تنأى الروايـة عن تصوير تلك الجرأة التي مكنت ذلـك الخـال ـــ متـذرعا بحمايـة العرف ــ من أن يواري جريمته تلك في حرص شديد منه على طمس آثارهـا بعد أن استباحها دون إشفاق منه أو رحمة حين « هوى ذلك الجسم الجميل الممزق فـي تلك الحفرة التي أعدت له إعدادا... ورجل قـام يسوي الأرض، ويصب عليهـا المـاء، ويردهـا كما كانت ثم ينحني قليلا ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ».[3] ونحن نجد هذا التصوير قريبا إلى أول جريمة ارتكبت على وجه الأرض* وهـذا يشـف عـن

1ــ طه حسين، دعاء الكروان ، ص114 .

2ــ المرجع نفسه ، ص84 .

3ــ المرجع نفسه، ص13

* قصة قابيل وهابيل.

عظـــم الجرم المـــرتكب في حق المرأة، وقد عمد (طه حسين) إلى تقريب تلك الصـــورة لإظهار والتأكيد على الجريمة، فلو أن (الخال ناصر) قام بعمل صائب يجيـــزه العـــرف والقانون لأشهر جريمتـــه تلك أمام الملأ كما أشهر خنجره فـــي وجـــه (هنـــادي)، هـــذه الضعيفة التي ناجت النجدة لكن لا حيـــاة لمن تنادي تماما مثل صوت (طائر الكروان) الذي مهما علا صوته وارتفع فإنه لا يجد آذانا صاغية لذلك نجد هذا الطـــائر يشـــــارك شخصيات الرواية مأســـاتهم من بدايتـــها إلى نهايتها « إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتا لروح من هذه الأرواح ليذكرني روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها...في ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع، ولا يجيب المغيث فيـــه لمن استغاث».[1]

كما أجد أن (طه حسين) قد نوه إلى أن هذه الصورة لا تقتصر فقط على (هنـــادي) وحدها بل كثيرات هن اللواتي تذوقن هذا الجرم والجور، وكأن هؤلاء الجهلة قـــد أســـند إليهم الاعتـــداء على حق الآخرين في الحيـــاة، وتمثل ذلك في ذلك المشـــهد التخييلـــي (لبنات الليل) الذي كان يتراءى لـــ: (هنادي) قبل مصرعها المتمثل فـــي تلـــك الصـــور المريعة لفتيات لاقين المصير نفسه أين كانت تتساءل عن أي لـــون من ألوان الموت كان ينتظرها «أما هذه التي تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازا ، وأما هذه التي تسمى مارتا فقد شق صدرها شقا، وأما هذه التي تسمى ملزمة فقد يقال أنها دفنت حية ولقيت حتفهـــا مختنقة في التراب».[2]

كما أجد أن في هذا اللون الأخير من ألوان الموت استحضار للعادة الجاهلية (الـــوأد) المجحفة في حق الأنثى أين كانت تُرفض ساعة ولادتها لأنها عورة ولا ينبغي لهـــا إلا أن تُدس تحت التُّراب.

إن هذا الاستحضار الرّائع لصورة الاضطهاد الذي كان يلحق الجنس الأُنثوي منذ أمـــد بعيـــد إنما يشف عن صورة ذلك الرفض الـــذي كان ولازال يطال هذا الجنس في ذلـــك

1ـــ طه حسين، دعاء الكروان ، ص12.

2ـــ المرجع نفسه ، ص82.

الريف المصري، فلم تمحه السنون ولا القرون فهو منقوش على تلك الـــذِّهنيات القابعـــة تحت وطأة الجهل والعدوان.

يتبين لي مما سبق أن هناك ما يدل على أن هذه التجربة الروائية ترتبط ارتباطا وثيقا بالتراث القديم، الذي جعل الكاتب القارئ يعيشه من خلال توظيفه بشكل بديع يربط ما هو حاضر بما قد سلف، وهو توظيف ألحقه المؤلف بالإشكالية التي تطرحها قضـــية المـــرأة والتي تعالجها الرواية، وهو ما أضفى عليها مسحة ثقافية وفكرية عن طريق إحياء التراث وإضافته إلى الحاضر، وهو ما يجعلنا نتابع هذه القضية بطريقة جديدة حيويـــة وبطريقـــة تذكرية واعية، إنه وعي جديد بالتراث ودمج له بالمعاصرة قدمه الكاتب بطريقة روائية.

* * *

ج) ضحية العجز:

تُبرز رواية (دعاء الكروان) عجز المرأة وقصورها أمام ذلك القيد الرهيب الـــذي لا تستطيع أن تجد منه خلاصا، فهي تتخبط فيه بلا فكاك، وتتمثل صورة العجز لدى المـــرأة في تلك الأخت الصغرى (آمنة) و(الأم) إذ كان عليهما أن وتشهدا ما جـــرّه الخـــال مـــن عدوان على الضحية (هنادي) دون إبداء أي مقـــاومة إلا ما كانت تبديـــه آمنـــــة مـــن امتعاض أين كانت تكره موضع أسرتها من الجـــهل والغفلة- إذ كانت تحترق ألما كلمـــا تذكرتها، فكانت تأسف عن ذلك العجز الـــذي حال بينها وبين رد تلك الجريمة النكراء في حديثها للكروان « هلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معا، وعجزنا عن أن ندفعهـــــا أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أزهقت، وعـــن هذا الدم البريء الذي ســـفك، ونحن عاكفتان على هذا الجسم يضطرب ويتخبط ويتفجر منـــه الـــدم في قوة كما يتفجر الماء من الينبوع ونحن عاكفتان في ذهول وغفلة وبله لم نفهم شيئا ولم نقدر شيئـــا ولم ننتظر شيئـــا وإنما أخذنا على غرة أخذا واختطفت هنادي من بيننا اختطافا».[1]

وما عساها تفعل المرأة إذا أحيطت بالفزع الذي يقطع الأنفاس تقطيعـــا، وإذا تحـــول البشر إلـــى أشباح مريعة، إذ كانت (الأم زهرة) في صورة العاجزة الذاهلة والغارقة في ضعفها ذاك الذي لا يمدها إلا بتلك الدموع التي تؤكد استلابها كما صـــورتها (آمنـــة) « وخالنا قائم أمامنا كالشيطـــان... وها هي هذه تغرق في بكائها الســـخيف بكـــاء الأنثـــى

1ــ طه حسين دعاء الكروان، ص12.

المستسلمة التي لا تملك حولا ولا طــولا إلا سفح الدموع».[1] ولو لم تكن هــذه المــرأة عاجزة لمكثت منذ البداية في قريتها التي نفيت منها ظلما وأكدت لأهلها بأن من العار أن تنفي الأسر نسائها وكرائمها.

من خلال ما سبق يتضح أن المرأة في وضع مستلب بهذا الشكل مثَّلت دور الشخصية النمطية أو الثابتة وهي التي « تبقى على حالها من بداية القصة إلى نهايتها فــلا تتطــور حيث تولَد مكتملة على الورق لا تغير الأحداث طبائعها، أو ملامحها، ولا تزيد أو تنقص من مكوناتها الشخصية»[2] ويوافق (يوسف نجم) هذا التعريف ويشبهها كأنهــا « حجــارة الشطرنج لا تختلف طبائعها وأدوارها بتطور اللعب»[3] ووفي هذه الرواية تبــدو المــرأة النمطية امرأة خنوع وخضوع لا تمثل بالنسبة للرجل سوى الظل والأداة لا دخل لها فــي أموره حتى وإن تعلقت بها، إذ تبدو:

- امرأة لا تعيش لنفسها بل تعيش لغيرها.
- تتحلى بالطاعة المطلقة للرجل أيا كان عنوانه في الأسرة وترى في ذلك واجبا يجعــل منها امرأة مثالية ومقبولة في المجتمع.
- محرومة من التفاعل بالمجتمع الخارجي.
- متقوقعة على ذاتها و تتقطع حزنا وحسرة على سوء حظها
- تعيش في بكاء دائم ومستمر طوال حياتها، ولا يعرف السرور إلى قلبها طريقا
- الاتصاف بالأمية والضعف والعجز.
- وهي ضحية التقيد والطاعة العمياء للتقاليد البالية.

والمرأة بهذا الشكل تعتبر نموذجا بشريا يجسم نقيصة من نقائص المرأة الممثلــة فــي الاستلاب ويعبر عن طبقة خاصة من المجتمع، وقد عمد (طه حسين) لجعل هذا النمــوذج جاهزا لأداء دوره والذي كشف عن تلك الشريحة الهامة في المجتمع والمُهانــة فــي الآن ذاته.

إن رواية (دعاء الكروان) أعطت صورة واضحة عن استلاب المرأة في ظل ذلــك المجتمع الريفي القبلي المتمسك بالتقاليد البالية التي يمجِّدها ويفضِّلها على إنسانية المــرأة

1ــ طه حسين، دعاء الكروان ، ص83

2 ــ شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، (دط). 1985، منشورات اتحاد الكتاب العرب ص32.

3 ــ محمد يوسف نجم، فن القصة، ص.103

تلك المعلقـــة بين ما يقتضيـــه سلطان الـــعرف الذي يرغمها على الخضـــوع للجهـــل الذي يحطُّها هو الآخر في دائرة الغفلـــة والبلاهة والحرمان، وبين طموحها فـــي عدالـــة اجتماعية تكفل لها حقها الطبيعي في الحياة.

يبقى أن نشيـــر إلى أن معالجة رواية (دعاء الكروان) لقضيـــة المرأة بهذه الصورة ليس مـــن قبيل دفعها للعصيان أو الثورة ضد القيم إنما إثباتا بأنها إنسان من لحم ودم، فلو كان حكم العرف عادلا، ولو كان واجبا على كلا الجنسين الامتثال لأحكامه، للاقى كل من (الخال ناصر) و(البـــاش مهندس) الجزاء ذاته الذي لاقته (هنادي) كجزاء عمَّا اقترفـــاه من ظلم وجرم في حقها، ولعل هذا مـــا دفع بـــ(طه حسين) إلى قلب صـــورة الاستلاب هذه إلى صورة أخرى مغايرة تماما تثبت فيها المـــرأة بضميرها الحي وجودها، بعـــد أن كشف لها الزمان زيف الغفلة الذي كانت تعيش فيه.

* * *

ثالثا: صـــورة المرأة الواعيـــة

أجد أن لآمنة صورا مكثفة وهو تكثيف يختصر أحداث كثيرة، لأن عملية التغيير التي تناولتها رواية (دعاء الكروان) كانت تؤدي دورها كاملا على نفسية (آمنة) فـــي حالاتهـــا المتأزمة بكل ما اختلج فيها من مشاعر الحسرة و البؤس والألم والقلق والغـــيظ والتـــذمر والجزع والرغبة في الانتقام مما أضفى على هذه الصورة حالة من التناقض المتولد عـــن وضع هذه المرأة المضطرب بين القوة والضعف.

أ) المـــرأة المتعلمة:

أراد (طه حسين) أن ينقلنا من تقاليد القبيلة و سيطرة العرف إلى نوع من الاســـتقرار الذي فرضته طبيعة التغيير في مسيرة الأخت الصغرى (آمنة) تلك الفتاة البدوية « التي لم تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث في لجـــة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال»[1] من تلك البادية المصريـــة إلى المدينة لتعمل في بيت المأمـــور كمرافقة لابنتـــه (خديجة) وبعد أن أنفقت أعواما هناك انفتح وعيها عن حياة جديدة إذ كانت دائما تقارن نفسها بتلك الفتاة فلا تجد اختلافا بينا بينهما غير أنها تعيش في نعيم وترف الأغنياء، في حين عاشت

1ـ طه حسين، دعاء الكروان، ص97

هي حياة الشظف والخشونة، كلها جهل وغفلـــة، إذ كانت تتعلـــم كما تتعلم، وتستفيد مما تستفيد، من تلك الكتب العربية، وتلك الكتب الفرنسية، التي كانتا تتفقان معها أكثر النهـــار وشطرا من الليل قارئتان أو متحدثتان عما قرأتا حتى امتازت عن أمها وأختها وأخـــذت تخرج من ذلك الطور الأبله شيئا فشيئا فكانت تحس أنها «أحسن منهما فهماً للحياة أصدق منهما حكماً على الأشياء، وأشد منهما صبراً على الخطوب وأمهر منهما في التخلـــص من الشدائد و الكارثات..فإني أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين تحتاجـــان إلى الحماية والحب و إلى العطف والعون!.».[1]

تبرز (دعاء الكروان) ذلك التحول الهائل للفتاة (آمنة) من صورة البلاهة إلى صـــورة تخالفها تماما أكسبتها ثقة بنفسها ووعيا بما يدور حولها من أحداث حين أصـــبحت أكثـــر إدراكا لحقارة الجهل الذي كانت تعيشه، إذ كانت تشفق على حال أختها الكبرى(هنـــادي) التي ظلت كما أقبلت من ريفها المبتدئ « لا تقرأ ولا تكتب كما أقرأ وأكتـــب ولا تحســـن أمور الترف كما كنت أحسن منها أشياء».[2]

وتصور (دعاء الكروان) المرأة في ظل حالات الحاجة والقحط وأمام غيـــاب القـــيم الإنسانية المتمثلة في واقع (آمنة) الريفي المتأزم الذي كان بالنسبة إليها كامرأة قوة معيقة لتحصيلها للعلم والانفتاح على الثقافة،حيث اكتشفت في بيت (خديجة) عالما مشـــعا بنـــور العلم أصبحت تحس من خلاله أنها إنسان لها وزنها وقيمتها، فكان غضبها على المجتمـــع جامحا، دافعا للسعي لتغيير ذلك الواقع الذي برأيها سلب سعادتها كامرأة حين كان يحجبها عن نير العلم ويجبرها على الانكماش بين زوايا الجهل والغفلة والبلاهة والحرمان.

كما خلفت تلك الجريمة التي شَهِدَتْها وعجزت على دفعها وقعا مؤلما في نفسها وهـــو الحدث الذي أكسبها حسا ووعيا بضرورة التغيير ما دفعها إلى رواية أحداث تلك المأســـاة على الناس لعلها تكف عن التِّكرار « لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! كلما انتصف الليل منذ أعوام فنذير بيننا هذا الحديث، أفتدعني أقص أطرافا منه على الناس لعلهم أن يجدوا فيـــه عِظة تعصِم النفوس الزكية من أن تزهق، والدماء من أن تراق؟!».[3]

1ـــ طه حسين،دعاء الكروان ، 69ـــ 70

2ـــ المرجع نفسه ، ص25

3ـــ المرجع نفسه، ص13- 14.

إذن، هي دعوة للتغيير من هته الفتاة المتعلمة التي أدركت قيمة العلم وما يمنحه للمرأة من ثقة تمكنها من مواجهة الحياة وأهوالها وتؤكد من خلالها للعالم بأنها إنسان مـــن لحـــم ودم بإمكانها أن تفكر كما بإمكانها أن تزيح عنها القصور الـــذي خصـــها بـــه مجتمعهـــا الاضطهادي.

ب) المرأة الثائرة المتمردة على العرف والتقاليد:

إن الكاتب (طه حسين) في إبرازه لهذه الصورة، يهـــاجم ذلـــك المجتمـــع الريفـــي المصري الذي يتحكم في سلوك الأبناء وخاصة الإناث منهم، ويتحكم في مصير المـــرأة فالرجل يتحكم ويضرب ويؤذي بقصد الدفاع عن السمعة، ولكنه يتسبب في إيقاع جـــرح ليس فقط جسدي بل ونفسي أيضا لدى المرأة، مما يجعلهـــا حانقـــة عليـــه كارهـــة لـــه.

وقد كان ذلك واضحا وجليا في (دعاء الكروان) أين صورت ما كان يكتمن في نفس (آمنة) من مشاعر الغيظ والغضب والبغض والاشمئزاز اتجاه أهل الـــدار خاصـــة (الأم والخال) كلما تذكرت ذلك الخطب الذي ألم بأختها، ولجأ (طه حسين) في هذا التصوير إلى التنويع بين السرد والحوار ليقوم بتوضيح أكبر المعالم في الشخصية الرئيســـية (آمنـــة) محاولاً سبر أعماق شخصيتها الداخلية بما تبديه من مناجاة النفس حيـــث كانـــت تقلـــب الأحداث على كافة أوجهها من أجل اتخاذ قرار أو موقف إزاء الوضـــع المتـــأزم الـــذي وضعت فيه، لعلَّها تأخذ بأعصابها نحو السكينة والقرار، فـــ: (آمنة) تحس بآلام موجعـــة مما سبب لها الكآبة والألم واليأس من الحياة، وتتكشف أسباب تلـــك الآلام عـــن طريـــق الحوار الداخلي الذي يجري بينها وبين (طائر الكروان)، فكانت تخبره في حوار مباشـــر بأنها تكره أمها وتكره خالها حتى الموت، لأنها ترى فيهما سببا لتعاستها، وكان الكاتب في كل ذلك يرصد تفاعلاتها النفسية مع الأحداث والمشاهد فهاهي تصف شـــعورها الملـــيء بالحقد والألم إذ تقول: « ما أشد بغضي لأهل الدار... وهذه أمي، يا للهول! ما أسمج هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة... هذه الأم البغيضة، المجرمة التي سفكت دم ابنتهـــا بيـــد أخيها... ويلك أيتها الآثمة إنك لن تستطيعي أن تردي نفسك إلى البراءة والأمن».[1] ومـــا

1ــ طه حسين، دعاء ،الكروان، ص ص 83- 90.

كان أشد بغضها لخالها الذي راح يحفل بحياته « لم يأخذه السلطان ولم يهـــرب ملتمســـا مأمنه... وهو لا يحس ألماً ولا ندما...كأنه لم يأت شيئا ولم يقترف إثماً...»[1]

لقد كانت(آمنة) ترفض وضعها التعجيزي وبالرغم من أنها بدت مشوشة الـــذهن إلا أنها كانت غارقة في التفكير راغبة في تغييره، وكان الحوار أو المنولوج الداخلي يكشف عن جوانب مختلفة في نفسيتها، أين لم تعد(آمنة) تحتمل سرور وبهجة أهل الدار التي لم تعُد تُثار فيها ذكرى أختها، ومن هنا ألحظ أن الكاتب أوصل الفتاة (آمنة) إلى الإحســـاس بالاقتراب من الرحيل والمفارقة، فهي تشعر بالغربة في أسرتها ذلك لأنها أصبحت تشعر بالانهزام والفناء أمام قسوة ذلك الخال الظالم الذي قطعت على نفسها وعدا على ألاّ تلقـــاه لأن لقاءه يزيدها ألما وبؤسا، « حرام علي أن أراه، إني عاجزة عن لقائه أليست هنادي قد ذهبت فيمن ذهب من أهل المدينة؟!».[2] ثم حملت نفسها نحو المدينة تلتمس الثأر من ذلـــك الشاب الآثم متنكرة باسم(سعاد) «لأنه اسم جميل يلاءم المألوف مـــن حســـن الاختيـــار والتظرف في الأسماء».[3]

ومن هنا جاء قلب (طه حسين) لصورة المرأة من الاستلاب إلى الوعي ورفض الواقع المهين والتمرد عليه أين أجده يهتم بنقل مشاعر الفتاة (آمنة) وخواطرها ونجواها النفسية الحالمة والمتناقضة في صورة أدبية عذبة ومن ذلك حديثها لنفسها « كنت أطمئن إلى أني لن أرى أهل الدار... ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ولن أخضع لغلظته... فيمتلأ قلبي أمنا وهدوءً وتبسم لي الحياة عن أجمل الصور الحافلة بالأماني والآمال، وأجد في ذلـــك قـــوة وشجاعة وصبرا فأمضي لا يدركني الإعياء ولا ينالني الكلال ولي غاية أسعى إليها، ولا أكاد أتمثلها وإنما أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعني إليها الغريزة دفعا... ثـــم كنـــت أذكر أختي فلا أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلمها أمامي..وإذا ينابيع الحزن تنفجر في قلبي وإذا الحزن يجري مع دمي، وإذا جسمي كله نار مضطرمة ولوعة محرقة».[4]

لقد عزمت (سعاد) الانتقام من ذلك الشاب ومن أجل ذلك أفسدت زواجه أولا مـــن ابنة المأمور (خديجة) حيث وقفت حائلا بينها وبين ذلك الخطر المنكر لما بينهما من مودة

1ــ طه حسين، دعاء الكروان ، ص94.

2ــ المرجع نفسه، ص94.

3ــ المرجع نفسه ،ص17.

4ــ المرجع نفسه ، 101ــ 103.

أين كانت ترى في ذلك فرضا يأخذها به (الإخلاص) و(الوفاء) الذي تصف بأنه « مـــرآة نقية صافية، أنظر فيها فترد إلي صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقيصـــة وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية في سبيل الأخـــت التـــي اغتالهـــا الخطـــر والصديق التي يوشك الخطر أن يغتالها».[1] تُبرز (دعاء الكروان) أن صورة هذه المـــرأة اتخذت لها من الإخلاص والوفاء والبطولة، والشهامة والتضحية، ألوانا تعكس مدى نبلها.

كما أبرزت الرواية صورة (الكيد والرياء) لدى المرأة حين أرغمت (سعاد) علـــى اتخاذه سلاحا يقرب إليها غايتها حين سعت إلى وُلوج بيت المهندس كخادمة لديه بعـــد أن أخرجت خادمته وخلفت مكانها أين كانت تكبر في نفسها براعتها في ذلـــك « يـــا لمكـــر النساء! يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهن في التلوين ونهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب..وإنما أنا أكذب وأُنافق وأصطنع الرِّياء وأُخفي ما أُخفي وأُظهر ما أُظهر في سهولة وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ».[2] إن ما يفسر اطمئنان (آمنة) للكذب والكيد والرِّياء، هو الضـــغط النفسي الذي كانت تعانيه نتيجة الانهزام وتغلغل الألم الواقع في ذاتها، ورغبتها الجامحـــة في تجاوزه والتغلب عليه، والإصرار على تحقيق رغبتها في الانتقام لأختها، لـــذلك هـــي ترى في قدرتها على الكيد انتصارا عن العجز والضعف والألم، وهذا الانتصار هو مـــا كانت تحتاجه من أجل بلوغ غايتها.

وكانت (سعاد) تكيد لذلك الشاب مكراً حتى أغرته بحبها، واستولت على قلبه الـــذي أحسنت الوصول إليه والاستيلاء عليه فتمكن حبها منه، غير أنها لم تلبث أن وقعت هـــي الأخرى في حبه، أين صورت (دعاء الكروان) ما يفعله استحكام الألم، وشدة اللوعة فـــي ذات المرأة حين وقعت في صراع نفسي تضطرب فيه العواطف العنيفة الحادة بين لونين متناقضين من الشعور« فمرة كأنها النفور الذي لا نفور بعده، ومرة أخرى كأنها الإقبـــال الذي لا إقبال بعده ما خطب هذا القلب؟ أمحب هو أم غير مكترث... أراغب هـــو فـــي الانتقام كما كان راغبا من قبل؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التي صرعت؟... وهي فـــي

1ــ طه حسين، دعاء الكروان ، 135

2ــ المرجع نفسه ، ص136_137.

الحالتين شيء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جـوهره الـذي هـو الحب».[1]

وهي صور كاشفة لكل ما يدور في ذهن المرأة المأزومة ولما تبقى في نفسـها مـن رغائب وقلبها من مشاعر وأمنيات إذ تبدوا (سعاد) في صورة مشوشة بين هذين اللـونين من الشعور أين يبرز الصراع بين الغريزة التي تتطلب الإشباع والضمير الذي يلح علـى الانتقام فتنظر إلى نفسها فترى صورة (آمنة) الأبية العزيزة، وترى صورة (سـعاد) الضعيفة المتهالكة، أين أصبحت غايتها في الانتقام من سيدها مستحيلة، خاصـة بعـد أن علمت منه أنه لا يريدها على الإثم وإنما يريدها على الزواج « فهو محب يلقى من الحب عناء وبلاء ، ويجد من آلامه مثل ما أجد..»[2] فهي عاجزة على أن تسيء إليه، كما هـي عاجزة على نسيان ذكرى أختها المظلومة، ومن هنا كان صمتها حين سألها« أمـا زلـت تضمرين الانتقام؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسـها وذاب قلبها فهو يسيل من عينيها دموعا».[3]

ولقد أفضت هذه الشاعرية الرائعة إلى قدرية النهاية حيث تمكنت (أمنـة) مـن جعـل المجرم يرد الأمر إلى نصابه فقد صار العبء لكل من الحبيبين أثقل من أن يحمله أحدهما دون الآخر« فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا».[4]

ومن هنا تحققت الرغبة في التغيير أين صارت (آمنة) ترى في نفسها صورة متجـددة تنعم فيها بالأمن والراحة والثقة « إني أمد عيني إلى المرآة أمامي وأثبتهـا فـي أديمهـا الصافي الصقيل حينا فتعود إلي بصورة إلا تكن رائعة بارعة، فإنها لا تخلوا مـن رواء ونظرة وحسن تنسيق، واني لأرى صورتي مرات ومرات في غير مرآة من هذه المرايـا الشاعرة البليغة التي تحسن الإفصاح عما في النفوس ».[5]

من الملاحظ أن (طه حسين) اعتمد لغة الصورة لتجسيد موقفه، ومن ثم يسهم فـي تعميق الإحساس بهذه الصورة عن طريق الانتقال بها مما هو نفسي إلى ما هو بصـري.

1ــ طه حسين ، دعاء الكروان ،ص 193.

2ــ المرجع نفسه ، ص194.

3ــ المرجع نفسه ، ص204.

4ــ المرجع نفسه ، ص.204

5ــ المرجع نفسه، ص15.

ويمكن استشعار أثر الفعل الايجابي لهذا التصوير الذي يهدف إلى إخراج المرأة من أسر وبوتقة الجهل فكأن فعل التغير الجديد الذي طرأ على الفتاة (آمنة) الطموحة قد أشاع حياة شاملة في عالم الريف والمدينة محدثا حيوية خرجت بالمرأة إلى حيث السعادة و إطـــراح الأسر الذي لطالما رسفت فيه.

من خلال ما سبق يتضح أن صورة المرأة الواعية اتصفت بالثورة على وضعها القديم والتمرد عليه، ومنه يمكن القول أنه بالإضافة إلى كون (آمنة) هي الشخصـــية الرئيســـية والمحور في الرواية فهي أيضا شخصية نامية ومتحولة في الآن ذاته، فنحن نجد الـــدور الذي أدته في هذه الرواية يتطابق تماما ومفهوم الشخصية النامية، أو المتحولـــة « التـــي تتطور من موقف إلى موقف بحسب الأحداث، ولا يكتمل تكوينها حتـــى تكتمـــل القصـــة بحيث تتكشف ملامحها شيئا فشيئا خلال الرواية أو السرد أو الوصف، وتتطور تـــدريجيا خلال تطور القصة وتأثير الأحداث فيها أو الظروف الاجتماعية»[1] و هذا بالضـــبط مـــا حصل مع بطلة الرواية التي تحولت نحو الانتقالية بتحطيمها للقيود المادية والمعنوية التي كانت تحكم حياتها وتسيرها إذ تظهر لنا (آمنة) في صورة:

- المرأة المتعلمة التي حملت مشعل التغيير وانتفضت محاولة الانتقام لأختها الضـــحية بنفسها.
- صورة المرأة الواعية القوية صاحبة المبادئ والمناضلة من أجـــل مـــا تـــؤمن بـــه والساعية إلى التحرر من النظرة الدونية التي طبعها عليها واقعها المتخلف.
- وهي المرأة المعتمدة على عقلها أكثر من اعتمادها على جسدها.
- وهي المرأة المتمردة الثائرة عن كل ما يشير إليها بالنقص أو القصـــور، والقائـــدة لمصيرها والقادرة على التأثير الايجابي فيمن حولها.

كما لا يفوتني أن ألفت الانتباه أن (آمنة) هي الصورة المُثلى للمرأة التي أرادها (طـــه حسين) أن تكون عليها، لذلك أجده يحرص على منحها استقلالية في الرأي، وحرية فـــي الحركة وفق قدراتها وإرادتها داخل عمله الفني، مما جعل شخصيتها تبـــدو قويـــة وذات فاعلية، دون أن يحسنا بوجوده، إذ كان يراقب صـــراعها وانتصـــارها وســـط المحـــيط الاجتماعي المحفوف بالمخاطر الذي رمى بها فيه.

1ـــ شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص32.

رابعا: صورة المرأة الصديقة

تتمثل صورة الصديقة في الفتاة (خديجة) وقد قدمها (طه حسين) بأنها فتاة حلـــوة النفس رضية الخلق مشرقة الوجه دائما، مبتسمة الثغر دائما، وديعة النفس، رقيقة الحاشية نشأت في بيت عز وترف وعلم وعلى الرغم من هذا كله إلا أنها مثلت صورة الصـــديقة الواعية التي تعرف كيف تصل إلى أعماق قلب آمنة الحزين، أين كانـــت تتحـــدث إليهـــا بحديث الفتاة العاقلة الرشيدة، وتشغلها عن همها « إنها لتفهمني في غيـــر ســـؤال، إنهـــا لترحمني في غير تكلف، إنها لترثي لي في غير كبرياء، إنها لتتصرف بي حيث الفـــرح والمرح و والدعابة اللعب».[1] فهي الصديقة المثالية بالنسبة لـــ: (آمنة) أين كانت تعطف عليها وتعزيها في خطوبها وتلملم جراح قلبها فكانت تشاركها في كثير من أمور حياتهـــا وتؤثرها في دراستها وفرحها وقلقها وإشفاقها، ولا تنظر إليها نظرة الخادمة على الـــرغم من ذلك التفاوت الطبقي الواسع بينهما، إذ كانت لها (آمنة) بمثابـــة الخادمـــة والأخـــت والصديقة في الآن نفسه.

وقد كان هذا الإحساس بالصداقة متبادلا من طرف آمنة التي كانت وفية مخلصة لـــــ (خديجة) وتعتبرها أحب الناس إليها وآثرهم عندها وأحسنهم مكاناً من قلبها تســـتعين بهـــا على احتمال أحزانها وأوجاعها، حيث كان يتراوح فكر (آمنة) بين همِّها الفردي وقلقهـــا على صديقتها، فمعاناتها تتداخل تداخلا شاملا بمعاناة القلق والخوف، أين تنسى آلامهـــا الفردية لينتقل اهتمامها إلى الآخرين، فمن دواعي رعاية ما لـــ (خديجة) عليها من جميل أنها كانت تفني جهدها وتفكيرها في أن تحمي صديقتها مما تراه خطرا عليها «... يخطر لي أني أحمي خديجة من شر عظيم، وأحول بينها وبين خطر منكـــر، وأقـــوم دونهـــا أن يفترسها السبع أو يغتالها الذئب ...وهذا فرض يأخذني به الوفاء لما بيننا من مودة ».[2]

ومن هنا أعطت (دعاء الكروان) صورة صادقة و مشرقة للمرأة الصديقة حيث اجتمعت فيها جل خصال الوفاء و الإخلاص والإيثار.

***

1ـــ طه حسين، دعاء الكروان،ص111.

2ـــ المرجع نفسه، ص134.

خامسا: صـــورة المـــرأة الساذجـــة

أجد في هذه الرواية بعضا من الصور الطريفة والساذجة للمرأة، ولعل إدراجها كان من دواعي رغبة(طه حسين) ليرفِّه عن أنفسنا نحن جمهور القراء من الحين إلى الآخـــر خاصة وأن روايته (دعاء الكروان) يغلب عليها طابع الحزن والكآبة والمأساة، وهـــو مـــا كان يتناسب مع طبيعة القضية التي يعالجها. لذلك فان حضور مثـــل هـــذه الشخصـــيات الطريفة ينقلنا عبر أحداث الرواية إلى جو من الفكاهة وشيء من المرح والمتعة، غير أن ذلك لم يكن دون جدوى، بل هي حركة هادفة من كاتبنا تفـــتح أمامـــه فرصـــة للـــتهكُّم والسُّخرية من بعض العقليات المنغلقة على أنفسها في عالم من الحماقة والسذاجة.ونحـــن نجد صورة المرأة الساذجة تتمثل في:

أ) زنوبة:

تمثلت صورة (زنوبة) في تلك المرأة الجريئة اللعوب، لها نشاط فيه عذوبة وما أكثر ميلها للهزل والغلو في المزاح وهي في حركة متصلة كأنها النحلة لا تستقر ولا تعـــرف السكون والاطمئنان، فكانت دائما « مسرفة في الحركة، لا يستقر لسانها فـــي فمهـــا،ولا يستقر وجهها أو لا يستقر ما يختلف عليه من الصور والأشكال، فهي عابسة حينا، وباسمة حينا، وهي تفعل بعينيها وشفتيها وحاجبيها الأفاعيل..»[1]

وكان اسمها شائعا على جميع الألسنة وفي جميع الأنحاء، كما كان تاريخهـــا حـــافلا بالخطوب والأحداث، أين انتقلت من تجارة الجسد لتصبح عيناً تستعين بها الشُّـــرطة فـــي كشف الجريمة أو تدل على أمراض معدية ذلك لمعرفتها بالشباب ومخالطتهـــا الرجـــال، وانسلالها إلى بعض الدور وأندية الشباب واستماعها لكثير مما يلقى من الحديث، وعلمها بكثير ممَّا يقع من الحوادث ويلم من الخطوب « فكانت عينا من عيون الشرطة تنفذ إلـــى كثير جدا مما لا تنفذ إليه عيون الرجال وكانت تفيد من ذلك مالاً».[2] وقد جمعت من كـــل هذه الحِرف مقداراً لا بأس به من المال عملت به كمرابية، وبعد أن قل نشاطها إلى اللَّهو الجريء اختارت لنفسها رجلا من الخفراء قويا ولكنه ضعيف الـــنفس، ســـيء الخلـــق «

1ــ طه حسين، دعاء الكروان ، ص144 .

2ــ المرجع نفسه ، ص.50

فاتخذته لنفسها زوجا أو خليلا،وعاشت معه عيشة يقرهـــا القـــانون وتنكرهـــا الأخـــلاق والدين».[1]

غير أن (آمنة) لما تحدثت إليها وجدت لديها شيئا من الألفة والثقة تكشفت فيها عـــن صور أخرى خفية من صور البؤس وتمثالا مستترا من تماثيل الشقاء.

ب) خضرة:

لا تقل صورة (خضرة) سذاجة عن سابقتها وإنما كانت مثلها معروفة بعيدة الصيت، تفد إلى العاصمة فتجلب سلعاً رخيصة من ضروب الأقمشة على اختلافها، ومن صـــنوف الأعطار ومن الأدوات اليسيرة التي تتنافس عليها النساء وحين تعود يشقى ويســـعد بهـــا الرجال و النساء جميعا أين لم يكن في المدينة بيت مترف إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سراً ومن صور سذاجة المرأة التي وردت أيضا أن أنفس سيدات البيـــوت تظل مفتوحة لها تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها، وقد تفضي إليها بالأحاديث، وقد تحمّلهـــا الرسائل والأنباء.

ج) نفيسة:

لم تكن هذه المرأة أقل شهرة من صاحبتيها أو أيسر منهما شأنا، لذلك نجدها دخيلة في كل بيت، صديقة لكل امرأة، أين أعطى (طه حسين) من خلالها صورة عامة عن مدى سذاجة المرأة الجاهلة الغافلة المنغمسة وسط دنس الخرافات، وكان لـــ: (نفيسة) صـــورة قبيحة تتطابق مع بشاعة ما تمتهنه من شر وبغي فهي امرأة « متقدمة في السن قـــد بعـــد عهدها بالشباب، وتركت الشيخوخة في وجهها وصوتها وجسمها كله آثارا قبيحة منفـــرة للنفوس».[2] فهي امرأة تحسن استشارة الودع وسؤاله عن الغيب، عرافة تقص مـــا كـــان، وتصف ما هو كائن، وتتبئ بما سيكون، لصلتها القوية بالجن والشياطين، تستخدمهم فـــي كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حد له.

1ـــ طه حسين، دعاء الكروان ، ص.51

2ـــ المرجع نفسه ، ص54ـــ .55

من خلال هذه الصورة الوضيعة للمرأة، يتدخل (طه حسين) بوعيه العقلي والفكـــري لينقل لنا أوضاع المرأة التي يهزمها واقعها المتخلف، المؤلم والمتـــأزم فـــي الآن ذاتـــه فيخبرنا عن ذلك التهافت على طلاسم تلك العرافة وذلك الإيمان اللاذع بما يأتي به ودَعُها من شرّ ونكِير، وما كانت تقبضه تلك المشعوذة من مال على فُسقها ذاك، في إشارة مـــن كاتبنا إلى الجهل الذي كان يحجب بصيرة المرأة عن إبصارها الحقيقة، ضف على ذلـــك كشفه لما تعانيه هؤلاء النسوة من غربة نفسية، وفراغ عاطفي في علاقاتهن الزوجية، أمام تصرفات الرِّجال المجحفة في حقهن « فهذه ضيقة بزوجها لأنه يخونها أو يـــؤثر عليهـــا ضرتها فهي تستعين بنفيسة لتسلط عليه عفريتا من الجن يصده عن خليلته أو زوجتـــه،... وهذه تحس من زوجها نشوزا أو إعراضا فهي تستعين بنفيسة لتتخذ لها من الطلسمات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة داره».[1]

لقد اهتمت رواية (دعاء الكروان) بتصوير ذلك الجانب الساذج والمظلم من المـــرأة وسط ما يحيط بها من ظروف تدفعها للبغي والدَّجل والانغِماس في عـــالم مـــن الـــدَّنس والخُرافات حيث أضفت هذه الشخصيات الساذجة نوعا من الطرافة الممزوجـــة بالطـــابع الكوميدي السَّاخر الذي يجعل منها أداة لفضح صور التزييـــف والكشـــف عـــن مـــواطن الضعف والخلل والبهتان في المجتمع.

في نقد الرواية:

تلك إذن هي أهم الصور والقضايا التي طرحها و ركز عليها (طه حسين) فيما يخص المرأة، والتي جعلها تمثل حلقة هروب من وضع مأساوي كان يحيط بها، نحـــو وضـــع أحسن تعرَّفَت فيه حسبه عن ذاتها، حيث عمد إلى صبّ كل ذلك والتعبير عنه في تجربته الروائية (دعاء الكروان) وهو عمل إبداعي جمالي بحت، وهذا ما لاحظه (حنا الفاخوري) ودعاه إلى القول: « الذي نلاحظه أن بعض كتابنا يعنون بجمال العبارة ورشاقة الأسلوب ومن هؤلاء طه حسين».[2] ويتبين لي من خلال إحداث ذلك الانقلاب الفكري والنفسي في شخص(آمنة) أن (طه حسين) يمتلك إستراتيجية ثقافية ثورية يطمح من خلالها إلى تثوير عقل المرأة كتمهيد لتثوير الواقع في محاولة ناجحة منه في الكشف عن العلاقة التي تربط المرأة بالبيئة والمجتمع، وقد تناول ذلك في هذه الرواية بكل ما هو متألق وفريد وسامٍ، ما

1ــ طه حسين ،دعاء الكروان، ص55.

2 ــ حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي ــ الأدب الحديث ــ،ط1. بيروت: 1986، دار الجيل، ص29.

يجعل القارئ يعيش الأحداث لحظة بأخرى مع تلك الشخوص التي جعلها الكاتب تـــؤدي أدوارها كما هي موجودة في الحياة، في قالب لغوي فصيح وهو ما أدى غرضه كـــاملا في فهم المعنى وبلوغه في صورة واضحة وجلية ذلك أن « فنان اليوم ليبذل جهده كله في طلب للغةٍ في وسعها أن توحي إلينا أن العالم ما يزال يخلق ذاته بمعونة الإنسان في جدل حي يتناظم فيه المشروع والمعطى»[1] حيث كان الحوار مع الذات جاداً سلِساً وما أســـرع انسيابه إلى القلوب وما أشد تأثيره فيها، مع تركيز بارز على اللغة الفصـــحى ــ وهـــذه بنظرني خطوة مميزة في الكتابة إلى حد ما ــ غير أن ذلك لم يكن يتطابق مـــع الطبقـــة الثقافية لشخصيات الرواية خاصة وأن أغلبها تنتمي إلى مستوى ثقـــافي متـــدنٍّ، فكـــلام الشخصيات يستند إلى طبيعتها وثقافتها وبيئتها كأن يكون الريف أو البادية أو المدينة ليعبر عن واقع الشخوص وبيئتهم.

شيء آخر متصل بهذه الرواية لا بأس أن أنوه به، هو أنه عندما نقرأها علـــى أنهـــا تصور أوضاع المرأة في المجتمع المصري نحس بأن هناك فترة زمنية بعينها تصـــورها الرواية، وإذا جعلنا نقرأها خارج مصر نلمس قوة الطابع الاجتماعي العربي والمصـــري معاً. وهذا أكبر دليل على مدى صدق هذه التجربة خاصة إذا علمنا أنه لا سبيل إلى نجاح الفن ما لم يهتم بالدرجة الأولى بالبيئة المحلية التي يصدر عنها. وإن كانت الرواية تصور قلق بطلتها وضياعها وعجزها عن التكيف مع التقاليد ومحاولته إيجاد بديل لها وبلا شـــك هي تصور قلق الكاتب (طه حسين) أيضا إزاء نماذج المرأة التي يفرزهـــا المجتمـــع أو البيئة المصرية التي يعيش فيها، أو الحياة التي يحياها بين مشادات الصراع بـــين تيـــار القديم والجديد، وهي نقطة كان قد أشار إليها محمد بركون في قوله « وكانت تجربة طـــه حسين مع الكتابة بشتى تجلياتها وأشكالها الفكرية والتراثية و الأدبية تحتوي على هذا الهم الإشكالي، مما جعل من نتاجه تعبيرا مكثفا لجميع وجوه وصيغ الفكـــر النهضـــوي، بمـــا أحدثه من نثر عربي بسيط مؤثر، فرض أسلوبا لا يرضخ للتزمت ولا للحشو»[2] و(طـــه حسين) يعرف القصة فيقول:« فليست القصة حكاية للأحداث وسردا للوقائع كما اســـتقر على ذلك عرف النقاد والكتاب، وإنما القصة فقه لحياة الناس وما يحيط بها من الظـــروف

1 ــ روجيه جارودي، ماركسية القرن العشرين، ترجمة: نزيه الحكيم، دط. بيروت: 1968، الآداب، ص92.

2 ــ محمد بركون: الفكر العربي ترجمة: عادل العراء،ط2. الجزائر: 1982، ديوان المطبوعات الجامعية، ص82.

وما يتتابع فيها من الأحداث».[1] وفي تعريف (طه حسن) للقصة بأنها فقه لحياة الناس تأكيد على الطابع المعرفي الاجتماعي للمفهوم الأدبي، فالكاتب يحاول أن يعرِّفنا نحـــن القـــراء بحياته وظروفها وأحداثها ويدعونا إلى مشاركته فيها. ذلك أن الإبداع هو ملجـــأ ورفيـــق وشريك الأديب في استفساره عن طبيعة الكون والحياة، عن الإنســـان والمـــرأة والبيئـــة والمجتمع حيث ينقش آلامه ويعبر عن ذاته على سطور الورق بما تبثه أحاسيسه ليلهمهـــا عملا أدبيا يعوضه عما يصيب وجدانه المليء بالآلام والأحلام.

وغالبا ما تتغلب النزعة الرومانسية على الكاتب فتجعله يعـــزل الفـــرد عـــن الواقـــع المتشعب المتشابك العلاقات الذي يتحرك فيه، وهذا ما يُؤخذ به على الأديب (طه حسين) على رأي (طه وادي) الذي يقول :« وجدنا "دعاء الكروان" بدلا مـــن أن تغـــوص فيمـــا ركزت عليه في البداية من سلبيات المجتمع الصعيدي ومساوئه وقيمه، التي لم تعد تصلح لمجتمع يتحول من البداوة والإقطاع إلى شيء من التحضر والتوسط في الثراء والثقافـــة، هربت من كل هذا إلى التعبير عن مأساة عاطفية شاعرية كان الحب فيها سلاح الانتقام»[2] وأنا أعتبر أن علاقة الحب تلك بين (آمنة) وسيدها وإن أسفرت عن نوع من المصـــالحة بين الطبقتين البورجوازية والكادحة إلا أنها تظل مصالحة عرجاء كسرت أفـــق تـــوقعي لنهاية الأحداث. فالمرأة لا تحتاج إلى من يتحمل معها العبء والأحزان بقدر ما هي فـــي حاجة إلى ردع انتهاك حقها في الحياة.

من خلال تتبعي لتجليات صورة المرأة في رواية (دعاء الكروان) خلصت إلى أنهـــا ليست مجرد مرآة عاكسة وإنما أرادها (طه حسين) أن تكون أيضا نظرة معاكسة يعيد من خلالها بناء شخصية المرأة العربية وقلب صورتها نحو وضع أحسن، غير أنـــه بتقديمـــه للمرأة بتلك الصورة السلبية التي غلبت على شخصيتها سواء على نفسيتها أم على فكرها وسواء في ذلك المجتمع الصعيدي أم في المدينة، كان قد أهانها بدل أن يعيد إليها اعتبارها فالأخت الصغرى (آمنة) هذه المرأة الثائرة والرافضة لواقعها المتدني لم يصل بها (طـــه حسين) إلى الهدف أو الغاية التي قادتها إلى (الثورة والتمرد) وهـــي (الانتقـــام)، فلاهـــي انتقمت من خالها المجرم الذي استحل دم ابنة أخته ظلما، ولاهي انتقمت ممن كان ســـببا في ذلك، بل انشغلت عن كل ذلك بعلاقة حب جمعتها مع (الباش مهندس) ذلـــك الشـــاب

1ــ محمد محمد عويضة، طه حسين بين الشك والاعتقاد، ط1. بيروت: 1994، دار الكتب العلمية،ص117.

2 ــ طه وادي، مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية،ص59.

البرجوازي الآثم الذي اعتدى على الأخت الكبرى الغافلة (هنادي) بإغوائه لها واستغلالها وعلى الرغم من أن (طه حسين) جعل (أمنة) تملك حساً ووعياً بعد تحصيلها كمًّا لا بـــأس به من العلم والمعرفة، إلا أن صورتها لا تختلف كثيرا عن صـــورة أختهـــا مـــا دام أن غريزتها تغلبت على ضميرها، فهي الأخرى وقعت متهالكة على ذلك النعيم فـــي (بيـــت الباش مهندس) متناسية سبب ولوجها إليه، « كل هذا لي ملك خالص لا يشاركني فيه أحد، ولا يزاحمني عليه أحد، أستطيع أن أعبث به إن شئت، ومتى شئت، لا يسألني أحد عمـــا أفعل فإذا اجتمعت في نفسي صور هذا النعيم كله أحسست أمنا وثقة».[1] فمـــا نفـــع العلـــم والمعرفة إذن إذا كان الضمير عاطلا عن الوعي بأن المرأة لا ينبغي لها أن تضع المال والشرف في كفة واحدة، لكن (آمنة) كانت تحس بالثقة والأمن لأن لا أحد يشاركها ذلـــك الثراء في كبرياء وغرور عاليين « كنت كلما رأيت صورتي في هذه العيون يحيط بهـــا الإعجاب والرغبةوالشهوات الآثمة لا أنكر ما أرى، ولا أكره ما أجد من الشعور، ولا أرد نفسي عن هذا الغرور الذي يثير في المرأة إعجاب الناس بها وتهالكهم عليها ».[2] وهـــذه صورة مشوهة عن المرأة العربية التي جردها (طه حسين) من إنسانيتها وجعلهـــا تبـــدوا ساقطة ليس لها من الأنفة من شيء. وكأنه يريد أن يقول: هذه هي الصورة التـــي يجـــب على المرأة العربية أن تكون عليها، ولعل ذلك مرتبط أو عائد إلى توجه المؤلف الفكـــري الذي يتبناه، والذي لا ينبغي للمرأة العربية أن تحذو حذوه.

وعليه، فصورة المرأة في الرواية تظل فردية تعبر عن أزمة الفـــرد فـــي علاقاتـــه بمجتمعه، والصورة التي قدمها (طه حسين) للمرأة لا تعبر إلا من زاوية خاصة نظر منها هو، بحيث تبدو القضية التي تعالجها رواية (دعاء الكروان) وكأنها قضية المؤلف أكثـــر من كونها تمثل قضية مجتمع بأسره. ولعل ما يفسر هذا التوجه هو اهتمامه بكتابة السيرة الذاتية التي يعكس المؤلف من خلالها كل اهتماماته وأفكاره ووجهات نظره.

1 ــ طه حسين ، دعاء الكروان، ص16، 17.

2 ــ المرجع نفسه، ص17.

خاتمة

خـــاتـــمة:

ترتبط صورة المرأة بالواقع المعيش، والصورة العامة للمرأة هي صورة فكرية وفنية في الآن ذاته، ومن خلال دراستنا لتجلياتها في إحدى نماذج الروايـــة العربيـــة البـــارزة توصلنا إلى جملة من النتائج والملاحظات أهمها:

- ❖ للفن الروائي تأثير ايجابي لاسيما في التنبيه على أهمية تغيير صورة المرأة فـــي المجتمع العربي وتحسين نظرته إليها، والدعوة إلى مشاركتها قي بناء مجتمع جديـــد يكون لها فيه مكانة تؤهلها للتأثير في مجالات الحياة المختلفة. باعتبـــار أن الروايـــة العربية ترتبط أساسا بمعالجة القضايا الاجتماعية، وفي مقدمتها المرأة وحريتها.
- ❖ يعد (طه حسين) من الروائيين الذين سعوا إلى إعطاء المرأة حقهـــا وتصـــحيح صورتها في الرواية العربية، لذلك نجده قد أسند بطولة روايته (دعاء الكروان) إلـــى نساء، حيث تناولها من مواقع واتجاهات متمايزة، كما اهتم بطـــرح قضـــايا المـــرأة وانشغالاتها المتعددة وهذا ما وقفنا عليه في هذه الرواية التي تناولت صورة المرأة من زوايا مختلفة مما أعطى لها صور مكثفة عكست واقعها واهتماماتها وتطلعاتها.
- ❖ لم تخلُ الرواية من الارتباط التاريخي والديني وارتباط الإنسان بالتراث، حيـــث نقلت الرواية صوراً من الواقع الذي يعيشه الإنسان، والقيم الموروثة والعادات المتبعة وتأثيراتُها في حياة الفرد والجماعة وخاصة المرأة.
- ❖ صوَّرت الرواية القضايا المتعلقة بالمرأة وعلاقتها بالرّجل، كالزواج، والخيانـــة ونظرة المجتمع للمرأة من نواحي مختلفة، كالتعليم والعمل.
- ❖ يَبرُز لي من خلال هذه الدراسة هذه تميُّز(طه حسين) بوعي فني ومعرفي مـــن خلال فهمه لأحاسيس المرأة وشعورها، فـــ (دعاء الكروان) تحمـــل أفكـــار نســـائية متناقضة توجه القارئ إلى هذه الأفكار والآراء تجاه القضايا المطروحة، فكل شخصية فيها تعبر عن فكرة وتدعو لها أو تناهضها، من خلال انفعالاتها وأهدافها وأفكارها.
- ❖ نقلت (دعاء الكروان) واقع المرأة بين بيئتين مختلفتين، والمرأة في كلتا البيئتين هي صورة حية لواقع بيئتها اجتماعيا وثقافيا، كما عمد (طه حســـين) إلـــى تصـــوير المجتمع الريفي المصري والمشكلات التي تواجه المرأة في حياتها، ثم بعد ذلك اتجه

إلى تصوير حياة المرأة في المدينة وما تعانيه هناك من صراع فكري ومادي وأزمات نفسية حادة نتيجة طغيان الجانب المادي والشعور بالطبقية الناتجة عن الفقر.

❖ أبرز(طه حسين) في هذه الرواية أثر البيئة والمجتمع في نظام وبنـاء شخصـية المرأة بما مكنته ملكاته التخييلية في عملية التصوير، إذ نجده في القسـم الأول مـن الرواية يعرض لجانب مظلم للمرأة في ذلك الريف القبلي، حيث هي نتـاج تخلـف ونقصان وعي، فكانت مجمل نعوتها أنها مستلبة، خاضعة، جاهلة، محزونـة، غافلـة ضعيفة وعاجزة، وقسمة حياتها أنها لا تملك لنفسها القرار، وهي امرأة غلبت عليهـا الصورة النمطية.

❖ كما عمد إلى مقابلة هذا الجانب بآخر مشرق للمرأة في القسم الثاني من الرواية حيث أعطى نموذجا للمرأة الثائرة عن الوضع الاجتماعي المهين الذي يقضي علـى المرأة بالموت. وهي محاولة من (طه حسين) لتغيير الصورة العامة التي ينظر بهـا المجتمع العربي إلى المرأة فعمد إلى إخراجها من قوقعة ذلك المجتمع الريفي المتخلف بأن انفتحت شخصيتها وفكرها على العلم والحياة الرغدة، أين كانت تنتقد الحياة التـي يسيطر فيها العرف والتقاليد على البشر.

❖ وقدم الكاتب إدانات تدين المواقف السلبية المنهزمة، في رسالة كان يبثهـا بـين الحين والآخر، والممثلة في ذلك الحوار الذي كانت تلقيه بطلة الرواية إلـى (طـائر الكروان) وهو ما كان يساعد كثيرا (طه حسين) على التعبير عن مواقفـه المتعلقـة بالمرأة والمجتمع بكل حرية.

❖ استند (طه حسين) في تقديمه لصورة المرأة في هذه الرواية بما يسـاعد علـى تمثلها نفسيا وما يعطي انطباعا عاما عنها، أو ما يوحي بموقف منها، بما مكنه أسلوبه الشاعري من التعبير عن معاناة الأشخاص، وكذا ثراء أسـلوبه الرومانسـي الحـالم بالعبارة العاطفية المشحونة بالمعاني المؤثرة التي تُبِينُ عن نظـرة الشخصـية إلـى الحياة، ذلك لعنايته بالوصف النفسي أكثر من الوصف المادِّي، وهي سمة فنية لعلهـا تتعلق بطبيعة المؤلف وظروفه البصرية الخاصة.

❖ تعكس رواية (دعاء الكروان) صور مختلفة من القضايا الاجتماعية وما يـرتبط بها من تخلف وجوع وفقر ماديا كان أو فكريا، وسيطرة الخرافة والجهل على العقلية العربية، وتخلف المرأة وسذاجتها وانعكاس ذلك على ما يحيط بها في المجتمع.

❖ حاول الكاتب إيجاد حلول لتلك القضايا التي طرحها مركزا على جانب التوعيـة في شتى جوانب الحياة المختلفة، لاسيما التأكيد عل ضرورة تعليم المرأة وحثها علـى إفهام ذلك للرأي العام في المجتمع، ذلك أن الإنسان لا يصل إلى حريته وكرامته فـي العيش إلا بالنضال عبر العلم والعمل.

❖ لم تثن الكاتب قسوة ظروفه عن إبداء براعته في وصف وتصوير المشـاهد، و أستشف ذلك من خلال بناء الرواية الذي أبان عن طريق لغة السرد البسيطة الدالـة على علاقات الأشخاص التي تجعلنا نحس وكأنها تتحرك أمامنا، ممـا يحيلنـا إلـى التسليم بنجاح (طه حسين) في تجسيد المشهد التصويري.

وعليه، فإن هموم الإنسان وآماله واحدة ومن هنا فإن التجارب الأدبية لهـا وظيفـة واحدة تهدف إلى تحرير البشر، لذلك فإن كل تجربة هي مثال لصراع البشر مـن أجـل حرية الإنسان وتحقيق سعادته. ومن هنا تعكس (دعاء الكروان) أهميـة خاصـة فـي التاريخ الروائي خاصة فيما يخص موضوع المرأة.

لعل هذه النقاط كانت أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة عن صورة المرأة فـي رواية (دعاء الكروان) لـ (طه حسين) والتي أعتبرها جزءً يسيراً من البحث في ميدان الإبداع العربي أمام زخر موروثنا الأدبي بفيض من الأعمـال الإبداعيـة ومواضـيعها المتعددة التي تنتظر الطَّرق والدراسة.

كما أتمنى أن تسعف دراستي الدارسين وتعينهم في أبحاثهم، وأن تبعـث فـيهم دفعـا للبحث والدراسة وطرق الجوانب التي لم يطرقها بحثي وتزويده بما ينميه ويثريه.

قائمة المصادر والمراجع

1ــ القرآن الكريم
2ــ الحديث النبوي الشريف
المصادر:
3ــ طه حسين، دعاء الكروان، دط. الجزائر: دت، دار تلانتيقيت.
المراجع:
4ــ أبو الهلال العسكري، الصناعتين ــ الكتابة والشعر ــ تحقيق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دط. لبنان: 1986، منشورات المكتبة العصرية.
5ــ أبي محمد عبد الملك بن هشام الحميري المعافيري، السيرة النبوية لابن هشام، (دط). لبنان:1433هـ ــ 2012م، دار الكتاب الحديث.
6ــ أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، طبعة جديدة منقحة.بيروت: 2006، دار الفكر للطباعة والنشر.
7ــ إيميل ناصيف، أروع ما قيل في المرأة، (دط). بيروت: (دت)، دار الجيل
8ــ توفيق الحكيم، الرباط المقدس، (دط). القاهرة: (دت)، مكتبة الآداب
9ــ جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط2. لبنـــان: 1983، دار التنوير للطباعة والنشر.
10ــ جمال الدين ابن منظور، لسان العرب،(دط).بيروت: (دت)، دار لسان العرب.
11ــ خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، ط1. بيروت: 1972، دار الطليعة للطباعة والنشر.
12ــ جورج طرابيشي ، رمزية المرأة في الروايـــة العربيـــة، (دط). بيـــروت: (دت)دار الطليعة للطباعة والنشر.
13ــ جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، ط2. بيروت: 1981، دار الطليعة.
14ــ حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في الشـــعر الجـــاهلي، ط10. الإســـكندرية: 2007، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
15ــ حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي ــ الأدب الحديث ــ، ط1.بيـــروت: 1986. دار الجيل.
16ــ حنا مينة، الثلج يأتي من النافذة، ط5. بيروت: 1985، دار الآداب.
17ــ رضا عواضة، أسرار المرأة في كلمات، د1. القاهرة: 1420ه، 1999م، دار الكتاب

الحديث للطباعة والنشر والتوزيع.

18ــ روجر آلن، الرواية العربية، ترجمة: حصة إبراهيم المنيف، (دط). 1997، المجلس الأعلى للثقافة.

19ــروجيه جارودي، ماركسية القرن العشرين، ترجمة: نزيه الحكـيم، (دط). بيـروت: 1968، دار الآداب.

20ــ طه وادي ، مدخل الى تاريخ الرواية المصرية،ط2. مصر: 1417هـ ــ 1997م، دار النشر للجامعات.

21ــ سيد صادق عبد الفتاح: موسوعة أقوال الفلاسـفة والحكمـاء فـي عـالم النسـاء، (دط).القاهرة: (دت)، مكتبة متبولي.

22ــ شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة،(دط). 1985، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

23ــ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصـر فـي مصـر، ط10.القـاهرة: (دت)، دار المعارف.

24ــ صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، (دط). باتنة:1988، دار الشهاب.

25ــ صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبـي، (دط). القـاهرة: 1978، الهيئـة المصرية العامة للكتاب

26ــ صالح مفقودة، صورة المرأة في الرواية الجزائرية، ط2.بسـكرة: 2009، جامعـة محمد خيضر.

27ــ عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، (دط). بيروت: 1967، دار الكتاب العربي.

28ــ عبد الرحمن منيف، بادية الظلمات، ط4.بيروت:1992، المؤسسة العربية.

29ــ عبد الرحمن منيف، الآن... هنا،ط1. بيروت: 1991، المؤسسة العربية.

30ــ عبد الرزاق عيد، طه حسين " العقل والدين"، ط1. حلب: 1995، مركـز الإنمـاء الحضاري.

31ــ عرفان محمد حمور، المرأة والجمال والحب في لغة العرب، ط1. بيروت: 2006، دار الكتب العلمية.

32ــ عزيزة مريدن، القصة والرواية، ط1. دمشق: 1400هـــ ــ1980م، دار الفكــر.
33ــ عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1. الإســكندرية: 1997، مؤسســة شباب الجامعة.
34ــ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، ط2. بيروت: 1972، دار النهضــة العربيــة.
35ــ عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة،تعليق: محمود محمد شاكر،ط1. جدة: 1412ه ــ 1991م، دار المدني.
36ــ غدير رضوان طوطح، المرأة في روايات سحر خليفة، رسالة ماجستير الدراســات العربية المعاصرة، جامعة بيرزيت، 2006.
37ــ فادية المليح الحلواني، المرأة في روايات قمر كيلاني، مجلة جامعة دمشق، دمشق: (دت)، العدد (1+2) المجلد 21.
38ــ كامل محمد محمد عويضة، طه حسين بين الشك والاعتقاد، ط1. بيروت: 1414 هــ 1994م، دار الكتب العلمية.
39ــ لويزا تشايدولينا، المرأة العربية والعصر، ترجمة: شوكت يوسف، (دط). بيــروت: (دت)، دار الجيل.
40ــ لينين، حول تحرر المرأة، تعريب: زينب نبوة، (دط). دمشق:1970، دار الجماهير المصرية.
41ــ محمد بدر معبدي، آداب النساء في الجاهليــة والإســلام ــالقسم الأول ــ النشــر، (دط).الجماميزية: (دت)، مكتبة الآداب.
42ــ محمد بركون، الفكر العربي، ط2. الجزائر: 1982، ديوان المطبوعات الجامعية.
43ــ محمد حسين هيكل، زينب، ط1. القاهرة، 1914، دار المعارف.
44ــ محمد صادق الكاشف، طه حسين بصيرا، ط1. 1407هــ 1987، مكتبة الخانجي.
45ــ محمد الغزالي، فقه السيرة، ط6. لبنان: 1965، دار الكتاب الحديث.
46ــ محمد يوسف نجم، فن القصة، ط1. بيروت: 1996، دار صادر.
47ــ محمود أمين العالم، يمنى العيد، نبيــل ســليمان، الروايــة العربيــة بــين الواقــع والإيديولوجية، ط1. سوريا: 1986، دار الحوار للنشر والتوزيع.
48ــ مصطفى صادق الرافعي، الإسلام انطلاق لا جمود، (دط). 1959، منشورات مكتبة الحياة.

49ــ نجيب محفوظ، بين القصرين، (دط). الجزائر: 1989، المؤسسة الوطنيـــة للفنـــون المطبعية.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمـــة ..... أ،ب،ج

الفصل الأول: المرأة في المجتمع العربي

أولا: التعريف بمفاهيم الدراسة:

- مفهوم الصورة الفنية 07
- التعريف بالمرأة 11
- مفهوم الرواية 15

ثانيـــا: صـــورة المـــرأة قبل الإســـلام

- المرأة الحاكمة 18
- المرأة المستقلة 19
- كرامة الأمومة عند العرب 19
- المرأة كجنس منبوذ 20

ثالثـــا: صـــورة المـــرأة في صدر الإســـلام:

- المرأة في العهد الأموي 23
- المرأة في العهد العباسي 23
- المرأة في العهد العثماني 24

رابعا : صـــورة المرأة في المجتمع العربي الحديث

- المرأة والتنشئة الأسرية 26
- المرأة والتراث العربي 27
- المرأة ونظرة المفكرين المحافظين التقليديين 28
- المرأة ونظرة المفكرين المجددين 31

خامسا: أثر الرواية العربية في تحسين صورة المرأة 35

الفصل الثاني: تجليات المرأة في رواية(دعاء الكروان)

أولا : صـــورة المـــرأة المستلبـــة(الزوجة الأرملة الأم)

- الزوجة الخاضعة للزوج 41
- الأرملة التي نبذتها الأسرة 43
- الأم المستسلمة للخطوب 43

ثانيـــا: صورة المرأة الضحية

- ضحية الجهل والغفلة 45
- ضحية العرف والتقاليد القاسية 46
- ضحية العجز 49

ثالثـــا: صورة المرأة الواعية

- المرأة المتعلمة 51
- المرأة الثائرة المتمردة على العرف والتقاليد 53

رابعا: صورة المرأة الصديقة 58

خامسا: صورة المرأة الساخرة 59

في نقد الرواية..... 61

خاتمـــة 65

قائمة المصادر والمراجع

ملحـــــق

الملحق

أولا: التعريف بالأديب "طه حسين":

1) حياته وأهم آثاره :

أ)المولد والنشأة:

« **1889:**ــ ولد طه حسين في (14 نوفمبر 1889) في عزبة "الكيلو"و تقع على مسـافة كيلو متر من "مغاغة" بمحافظة المنيا بالصعيد الأوسط وكان والده"حسين علي" موظفا في شركة السكر..وأنجب ثلاثة عشر ولدا سابعهم "طه حسين".

1895:ــ كف بصره..أصابه الرمد فأهمل أياما، ثم دعي الحلاق فعالجه علاجـا ذهـب بعينيه.

1898:ــ حفظ القرآن الكريم.

1902:ــ غادر قريته وتوجه إلى القاهرة طلبا للعلم في الأزهر».[1] حيـث عكـف علـى دراسة العلوم الدينية واللغوية.

« **1907:**ــ أخذ يضطرب في محيط الحركات الإصلاحية التي كان ينادي بهـا تلاميـذ ("محمد عبده)، من مثل (قاسم أمين) الذي كان يدعوا إلى حرية المرأة و "لطفـي السـيد" الذي أخذ يدعو إلى مقاييس جديدة في السياسة والخلاق والاجتماع.

1908_1914 :ــ انتظم في "الجامعة الأهلية للطلاب" وسمع إلى من كانوا يحاضرون بها من المصريين أمثال (الشيخ المهدي الحضري) ومن المستشرقين(نالينو وجودي) وسرعان ما انكشفت آفاق جديدة من بحث الأدب ودراسته ، بفضل المناهج العلمية في النقد التـي استمع إليها

من الأساتذة الأوروبيين.

ــ ثم اتجه إلى تعلم الفرنسية في المدارس الليلية.

ــتقدم إلى درجة الدكتوراه برسالته عن أبي ه العلاء».[2] وهو أول كتاب نال عليـه طـه حسين إجازة علمية من الجامعة المصرية.

1914:ــ « قررت الجامعة إيفاده في بعثته إلى "فرنسا" فنزل في"مبلييه" ..اهتم بدراسـة اللغة الفرنسية وحضر دروسا في علم النفس والأدب الفرنسي وفي التاريخ الحديث.

1ــ عبد الرزاق عيد، طه حسين "العقل والدين" ،ط1.حلب:1995، مركز الإنماء الحضاري، ص16 .

2ــ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ط10. القاهرة: (دت) دار المعارف ،ص 278 .

1917:ــ استطاع الحصول على درجة الليسانس في الآداب من السوربون.

ــ اقترن بالسيدة سوزان التي كان لها أثر ضخم في حياته.

1918:ــ فرغ من رسالة الدكتوراه عن ابن خلدون.

1919:ــ عاد إلى مصر في أكتوبر وعين مباشرة أستاذاً للتاريخ القـديم. واسـتمر فـي منصبه حتى سنة 1925.

1925:ــ التحق بالجامعة المصرية فعين أستاذا لتاريخ الأدب العربي في كلية الآداب.

1926:ــ أصدر كتابه "في الشعر الجاهلي" فقامت ضجة هائلة أثارتها عوامل سياسية أدت إلى سحب الكتاب من البيع.

1928:ــ عين عميداً لكلية الآداب فأثار ذلك أزمة سياسية فقدم استقالته.

1930:ــ عين من جديد عميدا لكلية الآداب.

1932:ــ أحيل الدكتور طه حسين إلى التقاعد، وابتداءً من 29 مارس 1932 لزم بيتـه، إلا أن يكتب في جريدة "السياسة"اليومية مجانا ، وتولى حينا رئاسة تحريرها فـي أثنـاء غيبة "محمد حسين هيكل"».[1]

« **1933**ــ انظم إلى حزب"الوفد"، وكتب في صحيفة "كوكب الشرق" وأخـرج صـحيفة "الوادي"».[2]

1934:ــ في ديسمبر من هذه السنة أُعيد الدكتور "طه حسين" إلى الجامعة أستاذاً في كلية الآداب.

1939:ــ انتدب مراقباً للثقافة في وزارة المعارف واستمر حتى فبراير 1942.

1942:ــ عينه نجيب الهلالي وزير المعارف مستشارا فنيا لوزارة المعارف، ثم انتـدب مديراً لجامعة الإسكندرية في أكتوبر1942، واستمر في هذين المنصبين حتى16 أكتوبر 1944.

1950:ــ في 13 يناير من هذه السنة عين وزيراً للمعارف و الوزارة الوفدية

ــ قرر مجانية التعليم الثانوي والتعليم الفني وحاول أن يجعل التعليم العالي مجانـا هو الآخر، فأبى الملك آنذاك، وكذلك حول عددا هائلا من المدارس الأولى إلى الابتدائيـة

1ــ عبد الرزاق عيد،طه حسين "العقل والدين"، ص ص 20 ــ 24 .

2ــ شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر ، ص281 .

وأنشأ آلاف الفصول وكان شعاره أن التعليم ضروري للناس ضرورة الهـواء والمـاء ، فانتشر

التعليم انتشاراً واسعا بفضله.

1951:ــ حصل على "الباشوية" وعلى وسام"اللجيون دونير"من طبقة "جرانـد فينسـييه" وعلى الدكتوراه الفخرية من جامعة "مدريد" وجامعة "كمبردج".

1952 حتى وفاته سنة 1973:ــ انصرف إلى الإنتاج الفكري الخالص».[1]

ب) أهم آثاره:

رحل "طه حسين" مخلفا وراءه إنتاجا فكريا هائلاً من الكتب، والمقـالات الأدبيـة التـي جمعت في كتب، وسنتتبع الترتيب التاريخي في ظهورها:

1914:ــ ذكرى أبي العلاء الذي طبع بعنوان "تجديد ذكرى أبي العلاء"

1917:ــ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية

1919:ــ الظاهرة الدينية عند اليونان و تطور الآلهة وأثرها في المدينة

1919ــ1924:ــ دروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية وهي كان يلقيها في الجامع ة بعد عودته من فرنسا

1920:ــ صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان

1921:ــ ترجم طه حسينعدة كتب عن الفرنسية:

- ــ الواجب: لجول سيمون
- ــ نظام الأثينيين: لأرسطو طاليس
- ــ روح التربية: لجوستاف لوبون

1924:ــ قصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين

1925:ــ قادة الفكر

1925ــ 1926:ــ حديث الأربعاء، وهي سلسلة مقالات نشرها في جريدة" السياسة"

1926:ــ في الشعر الجاهلي

1927:ــ في الأدب الجاهلي

1929:ــ الأيام، وجاءت في تسعة أجزاء، ثم جمعت في كتاب سنة 1929

1ــ عبد الرزاق عيد ، طه حسين "العقل والدين" ، ص (25 ــ 26).

1933:ــ في الصيف.

ــ حافظ و شوقي

ــ على هامش السيرة

ــ نقد النثر لقدامة بن جعفر

1934:ــ دعاء الكروان وقد أعيد طبعها مرارا، منها طبعة دار المعارف سنة 1959.

1935:ــ من بعيد

ــ أديب

ــ الحياة الأدبية في جزيرة العرب

ــ مع أبي العلاء في سجنه

ــ أندروماك لراسين

1936:ــ من حديث الشعر والنثر

1937:ــ القصر المسحور

ــ مع المتنبي

1938:ــ الحب الضائع

ــ مستقبل الثقافة في مصر

1939:ــ من الأدب التمثيلي اليوناني: سوفو لكيس

ــ الأيام

1942:ــ لحظات، وجاءت في جزئين

ــ على هامش السيرة.

1943:ــ صوت باريس: مجموعة قصصية تمثيلية

ــ أحلام شهرزاد

1944:ــ شجرة البؤس

1945:ــ جنة الشوك

ــ فصول في الأدب والنقد

ــ صوت أبي العلاء

1947:ــ عثمان

ــ زاديج أو القدر

ـــ أندريه جيد

1948:ـــ رحلة الربيع

ـــ المعذبون في الأرض

1949:ـــ مرآة الضمير الحديث

1950:ـــ الوعد الحق

ـــ جنة الحيوان

1952:ـــ ألوان

ـــ بين وبين

1953:ـــ علي وبنوه

1955:ـــ شرح لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري

ـــ من هناك

ـــ خصام ونقد

1956:ـــ نقد وإصلاح

1957:ـــ رحلة الربيع والصيف

1958:ـــ من أدبنا المعاصر

1959:ـــ مرآة الإسلام

ـــ من لغو الصيف

ـــ من أدب التمثيل الغربي

ـــ أحاديث

1960:ـــ الشيخان: أبو بكر وعمر بن الخطاب[1]

1ـــ عبد الرزاق عيد، طه حسين "العقل والدين" ص ص (26ـــ 34) .

ثانيا: أثر المرأة في حياة "طه حسين":

إن اللسان بذكرها لموكل والقلب صاد و الخواطر صور

(جميل)

عرف(طه حسين) المرأة بجميع وسائل المعرفة التي تيسرت له، فسيطر عليها وتمكنت منه، ولم تثنه قسوة ظروفه من التوصل إليها. ورغم ما ينقصه لم تقصر فسحة الأمل عنده عن التحامه بها بما لديه، في كلتا البيئتين اللتين ارتبطت بهما حياته في طوريه الأولين ، طور الصبا وطور الشباب «المرأة في كلتا البيئتين ــ كما عرفها طه حسين صورة حية لواقع بيئتها اجتماعيا ومظاهر حركة حياتيةــ وثقافيا ونظام بناء الشخصية، فهي كما تعرف عليها في البيئة الأولى : نتاج تخلف ونقصان وعي، ولذلك كانت مجمل نعوتها جاهلة محزونة، مجال حركتها مابين جدران الدار، وقسمة حياتها أنها لا تملك لنفسها القرار».[1] غير أن هذا لم يمنع من أن تخلف أثرا له وقعه في نفسه وفي كلتا البيئتين:

البيئة الأولى:

أمه:

كان يحس من أمه رحمة ورأفة ولينا ورفقا، ولو أنه كان يؤذيه الاحتياط المفرط في معاملتها له خاصة في مرحلة طفولته «كان يجد إلى جانب هذه الرحمة شيئا من الإهمال أحيانا ومن الغلظة أحيانا أخرى،.. أحس أن أمه تأذن لإخوته وأخواته في أشياء تَحظرها عليه، وكان ذلك يُحفِظُه».[2] كما كان لا يتحمل إشفاقها عليه لأن إخوانه وأخواته يستطيعون مالا يستطيع فقد كان (طه) لا يحسن الأكل بالملاعق بسبب عاهته « كان إذا أكل أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها بيد واحدة، وغمسها من الطبق المشترك فأخذها إلى فمه، فأما إخوته فأغرقوا في الضحك ... وأما أمه فأجهشت... لذلك حرم على نفسه كل الألوان التي تؤكل بالملاعق لأنه كان يكره أن تبكي أمه».[3]

1ــ محمد صادق الكاشف، طه حسين بصيرا ، ط1 . القاهرة: 1407 ه ــ1987م ،مكتبة الخانجي ، ص 69 .

2ــ كامل محمد محمد عويضة، طه حسين بين الشك والاعتقاد، ط1. بيروت: 1994م ، دار الكتب العلمية ، ص 12 .

3ــ المرجع نفسه ، ص 13 .

أخته:

كما سبب له وفاة أخته حزنا شديدا «..كانت أخته حلوة الحديث، تجيد القصص، وكان "طه حسين" يحبها ويأنس إليها، ولكن الموت يختطفها . ويعرف الصغير الحزن. ويعبر "طه حسين"عن ذلك بأسلوب درامي :وما أشد هذه الساعة التي أقبل فيها بعض الناس، واحتملوا الطفلة ومضوا بها إلى حين لا تعود،..فياله من يوم، ويا نكرها من ساعة حين عاد الشيخ إلى داره مع الظهر ، وقد وارى ابنته في التراب».[1]

الفتاة، زوجة المفتش الزراعي:

احتك طه حسين" بالمرأة في صباه حين كان يتردد على بيت المفتش لتعلم أصول التجويد حيث اتصل بزوجته التي لم تبلغ من العمر إلا ستة عشر سنة وكانت تجربة ساذجة « كانت تجربة قد صبغتها البيئة الريفية بأصباغها.. أخذ الصبي يذهب قبل الميعاد ليظفر بساعة يتحدث فيها إلى الفتاة.. وما هي إلا أن استحال الحديث إلى لعب، كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل».[2]

البيئة الثانية:

نبوية موسى:

وكانت المرأة في البيئة الثانية مثار إعجابه لما تمتاز به من علم ووعي من أمثال الفتاة الطموح (نبوية موسى) « وكان الفتى قد لقي السيدات في بيئته الريفية، ولكن لم يلق منهن القارئة الكاتبة، التي تظهر في مجالس الرجال، وتحاورهم فتلح في المحاورة ، وتخاصمهم فتعنف في الخصام، قبل أن يلقى تلك الفتاة».[3]

مي زيادة:

تعرف على (مي زيادة) التي سمع لها قصيدا ألقته في حفل تكريم (خليل مطران) «لم يرض الفتى عن شيء مما سمع إلا صوتا واحدا ، فاضطرب له اضطرابا شديدا، وأرّق ليلته تلك، وكان الصوت نحيلا ضئيلا ، وعذبا رائقا،وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خفقة إلى القلب، فيفعل به الأفاعيل».[4]

1ــ كمال محمد محمد عويضة ، طه حسين بين الشك و الاعتقاد ،ص19 .

2ــ محمد صادق الكاشف ، طه حسين بصيرا ، ص 72 .

3ــ المرجع نفسه ، ص70 .

4ــ المرجع نفسه ، ص ن .

زوجته "سوزان طه حسين":

لعل ما يترجم إعجاب (طه حسين) بنساء البيئة المثقفة أنه تمنى أن يحظى في الحياة بامرأة من الممثلات لتلك البيئة المثقفة، والمؤثرات تأثيرا واضح الملامـــح فـــي البنـــاء الاجتماعي النابتات في منابت ممارسة الحياة الراقية وهو ما تحقق له فعلا بزواجه مـــن الفرنسية (سوزان) التي كانت له بمثابة « الملك الذي حنا عليه فبدله من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملا ، و من الفقر غناء ، ومن الشقاء سعادة وصـــفوا ــ ذلـــك أنهـــا ــ متعلمة ، ومثقفة ، تحيا حياة راقية ممتازة ليست جاهلة ، ولا غافلة، ولا غارقـــة فـــي الحياة الخشنة الغليظة ».[1]

لقد كان إعجاب (طه حسين) بامرأة البيئة الثانية مصدر انشـــغال لفكـــره وســـمعه وقلبه،وهو ما أعطاه الجرأة بأن يتصدى لما تعرض له من هجوم مـــن جـــراء زواجـــه بفرنسية وما أثير من ضجة حول قضية الزواج المختلط « التي يقول فيها الشيخ "بخيـــت" لطه حسين :لو كنت حرا لاشترعت قانونا، ينفي كل مصري يتزوج مـــن أجنبيـــة..مـــا الأسباب التي حملتك على الزواج من أجنبية؟ وأنت مصـــري طيـــب ووطنـــي، عظـــيم الذكاء..فيجيبه "طه حسين" بلا تحفظ ولا تحرج : قابلت فتاة، وأحببتها، فتزوجتها ولو لـــم أفعل ذلك لبقيت عزبا، أو لتزوجت ــ نفاقا بما أنني
أحب امرأة أخرى ــ امرأة مصرية، وكنت سأجعل منها تعسة ».[2]

1ــ محمد صادق الكاشف، طه حسين بصيرا،ص 71 .

2ــ المرجع نفسه، ص83 .

ثالثا: ملخص عن رواية "دعاء الكروان" لطه حسين:

تدور أحداث الرواية في مجتمع قبلي ــ وبالضبط في قرية (بني الوركان)ــ الذي قضى على ثلاث نساء بأن يتشردن في الآفاق، إذ يجرفهن شقاء الريف نحو المدينة ولا عذر لهن في ذلك إلا فسق الوالد وضيق ذات اليد، تمتهن النساء الثلاثة الخدمة في البيوت،لتتعرض هنادي لكارثة عاطفية في بيت (المهندس) تصبغ حياة الأم والأخت (آمنة) بالسواد والكآبة، وهذا طبيعي في مجتمع يرى أن المرأة عورة يجب أن تستر ، وحرمة يجب أن ترعى، وعرض يجب أن يصان ، كما يرى أنها« لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن ولا تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج».[1]

و بعد أن تصرع (هنادي) ظلما بسيف العرف الممثل في الخال (ناصر)، وبعد أن ننتقل مع النساء الثلاثة من مكان إلى مكان لنعرف طبيعة الحياة القاسية التي تعرضن لها بعد هذا كله تنقلنا أحداث الرواية إلى شطرها الثاني الذي حاولت فيه آمنة ــ التي أسمت نفسها (سعاد) ــ أن تعود لخدمة المهندس الذي اعتدى على (هنادي) وكان سلاحها في الانتقام ورديا حالما يتناسب مع شاعرية الرواية. لقد حاولت أن تنتقم لأختها ب "الحب"من أجل ذلك أفسدت في البداية زواجه من سيدتها (خديجة) ابنة المأمور ثم كادت حتى وصلت للخدمة عنده، وبعد أن أغرته بحبها ..وبعد أن أحبته هي الأخرى وصلت إلى نقطة نفسية حرجة« ما خطب هذا القلب،..أمحب هو أم غير مكترث؟».[2] فهي لا تقدر على أن تسيء إليه بعد أن تمكن حبه من نفسها، وهي في الوقت نفسه لا تستطيع أن تعترف لنفسها بحبه إكراما لذكرى أختها ، ومن هنا كان صمتها حين سألها ... « أما زلت تصرين على الانتقام؟ و لم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت على نفسها، وذاب قلبها وهو يسيل من عينيها دموعاً».[3]

وهي النهاية التي صار فيها العبء لكل من الحبيبين أثقل من أن يحتمله أحدهما دون الآخر«فقد أصبح فراقنا شيئا لا سبيل إليه،..إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك، وإن

1ــ طه حسين ، دعاء الكروان، ص .43

2ــ المرجع نفسه، ص192 .

3ــ المرجع نفسه، ص 204

العبء لأثقل من أن أحمله وحدي، فلنحتمل شقاءنا معـاً حتـى يقضـي الله أمـرا كـان مفعولا».[1]

قصيدة دعاء الكروان

دعاء هذا الكروان الـذي خلدتـه فـي مسمـع الدهـر
له صدى في القلب والفكر من أشهـى متـاع القلـب والفكـر
لكنـه مشـج بترجيعـه لما جـرى فـي ذلك القفـر
إذ تسكن البيداء و هنا فما ينبـض إلا مهـج السفـر
والليل في التيه السحيق المدى يطبـق جفنيـه علـى وزر
و الطائر المرتاع في جوها ينذر بالمأساة فـي ذعـر
يرن أرنان سهام رمت حيث رمت بالشعل الحمـر
أسال أدمعي خطب مطلولة مقاولة فـي زهـرة العمـر
جنى عليها واهم أنه يثـأر للعـرض وللطهـر
و خامرتني حسرة خامرت شهود ذاك المصرع النكـر
أليس للأرواح في بثها أواصر من حيث لا تـدري
جوهرها فرد و إحساسها مشترك في النفـع و الضـر
حادثة في ريف مصر جرت ومثلها في الريف كـم يجـري
قصت علينا قصصا شائقـا في كلم أنقى من القطـر
مسرودة سردا على صفوهـا أفعل في النفس من الخمـر
يا لغة العرب التي كاشفـت طه بما صانت مـن السـر
من أي روض يجتنى مثل مـا جنـاه من أزهـارك النظـر
أي بحر و المنى درهـا يصاد ما صاد مـن الـدر
من أي تبر في غوالي الحلى يصاغ ما صاغ مـن التبـر
آيات طـه نزلت طرفـة بديعـة فـي أدب العصـر
جلت خيال الشعر في صورة أغـارت الشعـر مـن النثـر[2](*)

---

1 ــطه حسين، دعاء الكروان، ص.404

2ــ المرجع نفسه، ص ص 7 – 9)

.(*) هي قصيدة ل"خليل مطران" أهداها "لطه حسين" بعد أن بلغت رواية "دعاء الكروان" من نفسه موضع الرضا.

ملخص:

تناول هذا البحث صورة المرأة في الرواية العربية المستمدة من واقع الحياة فهي ينبوع التأليف الروائي وبقدر ما يستوعب الأديب نواحيها ويتعمق فيها بقدر ما تسمو كتاباته في عالم الخلود الإنساني.

ارتبط جدل (طه حسين) مع المرأة بجدله مع الوجود والحياة، وقد كشف عن امتلاكه قدرة روائية تعكس حياة العصر، بما قدمه من صور أدبية هدفت إلى تغيير وعي المتلقي للمرأة وللمجتمع وللحياة، حيث تعكس رواية (دعاء الكروان) تكثيفا لآلام المرأة المتولدة عن تذبذب الحياة الاجتماعية بين القيم المُتوارَثة والرَّغبة في التَّجديد، وهو ما جعلها تثبت بجدارة مكانتها في مجال الإبداع الأدبي.

والرِّواية وإن كانت الشَّخصية الرئيسية فيها امرأة فإنها تعبِّر عن مأساة طبقة معينة من المجتمع ويأسها من أن تنال حظها من التوفيق أو السعادة في الحياة، ويسعى الأديب في كل ذلك إلى التغيير في الوضع ليحقق وجوداً أجمل لنفسه ولمجتمعه.

Résume :

On a traité dans ce recherche l'image de la femme dans le roman arabique, qui dérive de la réalité de la vie que assimiler la source de auteur romancier et absorbent autant que les rapport de l'écrivain et l'approfondissement de la qui transcende ses écrits dans le monde de l'immortalité humine.

A été associe à controverse (taha Hussein) avec la femme de converse avec la présence et la vie a été révélé capacité d'un romancier à refléter la vie de l'époque,Y compris ses images littéraires visant à changer la conscience du destinataire de la femme et de la société. Ou l'incarnation (la prière du karawan) intensification de les douleurs de femme tortiller la vie sociale entre valeur traditionnelles et un désir de renouvellement ce qui fait un spectacle mérité sa places dan le domaine de création littéraire.

Le roman bien que le personnage principal ou' les femmes expriment la tragédie d'un certaine couche de la société et de désespoir qui minent leur part de chance ou de bonheur dans la vie, Et l'écrivain cherche comment changer la situation pour assurer un présence pour lui-même et pour lui société.